جاردينيا

جاردينيا

رولا حسينات

تصميم الغلاف: أسامة علام

المراجعة اللغوية: رولا حسينات

رقم الإيداع: 2017/5427

I.S.B.N:978- 977- 85342- 1-8

الطبعة الأولى 2017م

للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com

Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

رولا حسينات

جاردينيا

مجموعة قصصية

زين للنشر والتوزيع

النّقش على الحجر

تقديم بقلم الكاتب: أيمن العتوم

قصصها تذهبُ بعيدًا في الغموض اللّذيذ، تطوف بكَ عوالمَ سحريّة تشعر أنّك ارتدَتْها من قبلُ لكنّها الآن تتبدّى لكَ من جديد، وتبلعكَ في جوفِها، إنّها تكتبُ عن الوجع كأنّه كأسٌ شهيّ، وعن الألم كأنّه عُرسٌ دامٍ، هي فاتنة الحرف، الحرف الذّابح، الحرف الّذي يحرفُ بوصلةَ قلبكَ نحو واقعٍ كأنّه خيال، وحقيقةٍ كأنّه الشّكّ، لأنّ كلّ ما فيها منسوجٌ بلغةٍ ساحرةٍ مُدهِشة، تضعكَ في مواجهة المشهد بشكلٍ صادم.

حينَ ترسمُ خيوطَ الشّخصيّة تتأكّد من أنّها تحملُ عدسةَ مُصوّرٍ مُحترف، لا يُمكن لكاتبٍ يُريدُ أنْ يدمجكَ مع البطل أنْ يملكَ أسلوبًا أفضلَ من هذا، ها هي هنا تصنع ذلك باحتراف كما في قصّتها: (ادخلوها آمنين)، حينَ تقول: "رجل ذو لحيةٍ كَثّة سوداء طويلة وعينين خرزيّتين، والكثير من التجاعيد مصفوفة حولهما بنصف دائرة، مع هالة سوداء أسفل العينين أشبه بكيس مائي، وعلى صفحة الجبين المُسطّر بشقوق مستقيمة تتربّع دائرة سوداء فمال وجهه للون السكني، وقد شبّك يديه خلف ظهره بانحناءةٍ تدل على رجل قد تجاوز الخمسين ليبين عن قامة قصيرة يسترها قطعتان من الملابس، القميص الطويل والسروال وتغطّي رأسه قبعة بيضاء تخفي بضع شعرات سوداء ملساء". إنّ الكاتب المُحترق الّذي يملك الحرف النّازف هو وحده من يصنع خطوط الشّخصيّة بهذه الدّقّة. ما من كاتبٍ قادرٍ على أنْ يوقِظَ طوفان المشاعر في أعماقك دونَ أنْ يتماهَى هو مع أبطاله، يذوب في ذواتهم، ينسلخ من نفسه لصالحهم، ثُمّ يعيشهم كأنّه هو هم، ثُمّ يصنع خَلْطته العجيبة، ثُمّ يقدّم لكَ المشهدَ الفاتن لتعيشهم أنتَ بدوركَ من جديد: هذا بالضّبط ما تفعله رولا في قصصها الدّامية.

إنّها تُعرّي في قصصها تُجّار الحروب، وبائعي الإنسانيّة، وقاتلي الإنسان، والدّجّالون الّذين يلبسون ألفَ قِناع ليخفوا وجوههم الكالِحة، وإذا أردتَ أنْ تُدركَ ذلك بطريقةٍ أخّاذةٍ فما عليكَ إلاّ أنْ تقرأ: (أنتَ مجرّد وهم).

إنّها أمانة، أمانة الحرف حينَ يكون رسالةً وفكرة، قبل أنْ يكونَ ترفًا ومُتعة، إنّها الشّعلة الّتي يحترقُ قلبُ كاتبها من ألاّ تغرق دروب البشريّة في العتمة وتهوي في الظّلمات. وإنّه النّضال من أجل الحقّ والفضيلة حتّى ولو أكلَ ذلك من شبابنا وأعمارنا.

نثرٌ كأنّه الشّعر على طريقة أبي حيّان التّوحيدي، هذا ما تفعله بنا رولا، اقرأ معي هذا: " كهائم يصيد السراب، ما تراه غيّره؟؟ ما الذي مضى به إلى حيث يصدمه الصدى فيرده على عجل؟؟ بعثرة أفكاره ومطر من الأسئلة كالهشيم.. قبل أن يلتقطها.. لم دغل الريبة متشابك في جوفه الأبكم..؟؟". أليسَ هذا شعرًا بطريقةٍ أو بأخرى؟! ألا يُقدّم نفسه على أنّه ينفلتُ من جمود النّثر من خلال صورته وإيقاعه ليدخل في عالم الشّعريّة الفسيح؟!

رولا إلى جانب رسمها الشّخصيّة في أدقّ تفاصيلها، تتقن كذلك دقّة التّعبير عن الحالة النّفسيّة أو الوجدانيّة، هل يقفُ الكلام في الحلقِ حجرًا؟! هذا ما قالتْه في قصّتها: (ادخلوها بسلامٍ). وهل كان لِزامًا على الأحلام ألاّ تتحقّق إلاّ ذلك النّوع من الأحلام الّذي يعرُ لكَ أحبابكَ وهم يموتون أمام ناظِرَيك؟! هذا ما قالتْه في قصّتها: (جاردينيا). وهل النّهاية يكتبها المنتصر بقلمٍ جافّ؟! هذا ما قالتْه في قصّتها: (الحبر القرمزيّ). ومن أينَ يأتي العشق؟! بل من أينَ ينسرب التفجّع؟! هذا ما ستعرفه حين تقرأ قصّتها: (أنتَ مجرّد وهم). وكيفَ يُمكن أنْ يكونَ الموتُ حِساءً يستلذّ به الكثيرون، ويقدّمه حثالةُ المجتمع إلى النّاس من أجل أنْ تتضخّم جيوبهم؟! هذا ما تكشفه قصّتها: (الرّقدة الأخيرة).

إنّها كاتبةُ الفجيعة تُتقن العزف على وتر الشّجا والحزن، كلّما مررنا بشجنٍ من أشجان كلماتها بعثَ فينا شجنًا قديمًا، وحزنًا غائرًا فاستفزّه للصّعود إلى أعلى ما في نفوسنا من إنسانيّة، كأنّها مثل مالك بن نويرة وهو يرثي أخاه مُتمِّمًا بقوله:

لقد لامني عندَ القبورِ على البُكا

خليلي لتَذرافِ الدُّموعِ السّوافِكِ

فقال: أتبكي كُلَّ قَبْرٍ رأيْتَهُ

لقبرٍ ثَوى بين اللّوى فالدّكادِكِ؟!

فقلتُ له: إنّ الشّجا يبعث الشّجا

فَدَعْني فهذا كلّه قبرُ مالكِ

فهل كان في كلّ قصّة قبرُ الأحبّة وذكراهم حاضرةً من أجلِ مزيدٍ من اللّوعة والشّوق؟! هذا ما تُجيب عنه قصص كاتبتنا المُدهِشة.

حروفها تُشبّه النّقشَ على الحجر، عميقةٌ، باقية، مُؤثّرة، ولها ذاكرةٌ عنيدةٌ لا يُمكن أنْ تُمحَى بسهولة. واعدةٌ لأنّها اختارتْ أنْ تنحاز إلى الإنسانيّة، قادرةٌ على الاستمرار لأنّها تسبر أغوار النّفس البشريّة الّتي لا تموتُ بكلّ تناقضاتها وتباين حالاتها. ولها أنْ تتبوأ بإذن الله منزلةً رفيعةً تستحقّها في عالَم الحرف الخالد، ولنا أنْ نشرُفَ بإبداعها المُختلف، ولنا أيضًا أنْ نحيا حياةً أخرى مع هذا اللّون من الكتابة الّتي تأسرك وتنقلك إلى عالَمٍ سماويٍّ فريد.

أيمن العتوم

عمّان 13-2-2017

ادخلوها آمنين

-ما رأيك؟.

قالها وقطرات العرق تنزلق من جبينه لتملأ صفحة وجهه القمحي ولحيته الرقيقة باتت مبللة. قالها ووضع يديه على خاصرتيه وهو يحكم النظر إلى ذلك المجسم الجاثم على الطاولة الخشبية وقد تناثرت حوله الأسلاك والقطع المعدنية والكثير من المفكات والبطاريات مختلفة المقاييس وساعة رقمية دائرية الشكل.

الكثير من الفوضى في المستودع الكبير الذي يعج بالكثير من القطع المعدنية ذات الأشكال والأحجام المختلفة وأخيلتها الضئيلة تنبض من النور الخافت المنسل من المصابيح المعلقة التي تحيط بالقليل منها.

ومن فوره قام من الكرسي رجل ذو لحية كثة سوداء طويلة وعينين خرزيتين والكثير من التجاعيد مصفوفة حولهما بنصف دائرة مع هالة سوداء أسفلهما أشبه بكيس مائي، وعلى صفحة الجبين المسطر بشقوق مستقيمة تتربع دائرة سوداء فمال وجهه للون السكني، وقد شبك يديه خلف ظهره بانحناءة تدل على رجل قد تجاوز الخمسين ليبين عن قامة قصيرة تسترها قطعتان من الملابس، القميص الطويل والسروال وتغطي رأسه قبعة بيضاء تخفي بضع شعرات سوداء ملساء.

أخذ يقترب بتؤدة، ورغم أن حواسه كانت مشدودة لما هو جاثم على الطاولة الخشبية إلا أنه لم يكن ليحفل بذلك الشاب الذي لقيه قبل بضعة شهور على حافة الانهيار، حين أنقذه من محاولة انتحار فاشلة، بعد أن أقنعه بالعدول عن قرار إلقاء نفسه من أحد الأبراج وسط المدينة واعدا إياه بأن يقدم له عملا يحل جميع مشاكله، كان هذا الحل كمصباح علاء

الدين، وهو يقرُّ بنفسه أن هذا الشاب الطويل القامة قمحي البشرة سيكون ذراعه اليمين في عملياته، التي سيضمن فيها ولاء منقطع النظير من شاب فقير فقد علاقته بالحياة بفقدانه قشة التعلق بها، وهو كنزه المخبأ في المغارة، صانع مذهل للصناديق الصغيرة المحشوة بذخيرة متفجرة والموصولة بساعة رقمية.

أخذت الأفكار تعزف على وتر عدم المبالاة لغاية في نفس يعقوب وهي أن لا يغتر هذا الغرُّ الساذج بقيمة ما يفعله، تتطاحن القوى المعادية له ولتنظيمه باعتباره قائدا في منطقته، هذا التنظيم الذي يتمدد كإخطبوط في أدمغة الشباب، ولهذا عليه أن يتيقن من حقيقة انتماءه لجماعتهم، و أن يتأنى كثيرا في إظهار اهتمامه به. صانع القنابل هذا هو بالتأكيد ثروة لا يمكن التفريط فيها تحت أي ضغط أو بأي مبرر، بخاصة بعد المراقبة الشديدة عند الحدود والتفتيش الدقيق لما يحملونه. فالاعتماد على شاب ذكي بمقدرات بسيطة ومواد متوفرة يحول دون الاشتباه في هذا المستودع في وسط المدينة، من ذا الذي يفكر أن تنظيما إرهابيا كما يحلو لهم تسميتهم يعيش وسط البيوت ويمشي أفراده في الأسواق ويعايشون أناس المكان البسطاء؟.

نبس عن ابتسامة فاترة وأومأ برأسه وهو يقول:"عمل جيد ولكن..." وقعت كلمة ولكن في قلب الشاب الذي لم ينعم بمعنى للحياة منذ زمن بعيد تعاهدت عليه الأنواء والبشر أن ينقضوا جداره ويقلبوا عليه ظروف التعاسة، فوئدت أحلامه بإنهاء دراسته الجامعية في الهندسة الكيميائية، وإغلاق سبل العمل ومرض أبيه العضال الذي غدا كطاعون ينهش جسده يوما تلو الآخر وساعة تلو الأخرى، وقوضت قبضته وأوهنتها فما عاد له طاقة ليستمر بلا شيء، القيود أحيانا تعطيك الحق في الدفاع عن حقك، ولكن إن لم تقيدك فعما ستبحث وممن ستأخذ حقك؟.

الشيخ قدري يدرك تماما أن مثل هذا الشاب استثمار لا يمكن التخلي عنه، فأمثال هؤلاء هم من يخصبون تربة عملياته ويراهنون على إنجاحها، الكثير من الساعات الرقمية والأسلاك الزرقاء والحمراء تضمن توسعا

منقطع النظير لتنظيمه المتطرف، البدء فقط بإثارة الفوضى والسيطرة على العقول... من إثارة الفوضى إلى سباق زرع القنابل، موت الكثيرين من البسطاء لا يعني سوى أنهم يشاركون في تغير الصورة عن الاستقرار لهؤلاء المسيطرين على ساحة اللعب، لا من السيطرة على الأرض، وإفناء ساكنيها بأيدي أولادها الآثمة.

ولكن الطريق الأسلم الآن هو عدم التأثر بما أنجزه الشاب ولتبقى آماله معلقة على أمل أن يجتاز هذا الاختبار وأن يربطه بشريط ملون من نعيم الحياة وهلوستها..

لم يكن الشيخ قدري بعيدا عن عيني سعيد الزائغتين وهو يقلب واقعه على هامش الحياة وهذا البئر المعتم الذي سيخرجه من سجن ابن يعقوب، حركات ذراعيه قدميه اللتان لم تعودا كعكازين بل كهشيم وذلك الشيخ لا يعي ما هو فيه، مطه لشفتيه، لكن، مشيته المتأنية وتقليبه لتلك القابعة على الطاولة بعينيه دون أن يحاول لمسها وإشباع رغبته فيها، جهده وسهره ليومين قد باءت بالفشل

- نعم..أنت فاشل، لم تتعد كونك جنديا أحمقا وحسب.. أخذ صوته المجلجل في جوفه يرفع درجة حرارته ويحكم دورانه في دوامة الهزيمة..هو لا يدري بالفعل ما هي الخطوة المقبلة؟ ولكنه رغم ما فيه من بؤس سيتأنى على أمل معلق فوق أبراج السراب.

علامات الإحباط والذبول قد ظهرت على وجهه والتي تيقن منها الشيخ قدري، بأن هذا الشاب قد وهن بما فيه الكفاية ليجعله في مصيدته.

مساحة النور المنبسطة على المستودع لم تكن كافية لتمحو ما يعانيه سعيد ولكن قبضة الشيخ قدري على يديه جعلته يؤمن بأنه قادر على أن يفعل شيئا مفيدا في حياته.

-عملك رائع حقا يا سعيد ولكن عليك أن تجعله أكثر صغرا. هذه المرة الـ لكن لم تجعله مسجونا في دوامته القاحلة بل أضاءت له نورا آخر من

شمعة ما لم تنطفئ ذبالتها بعد... خرجت الحروف متكسرة ضعيفة بحشرجة من تلك الحنجرة التي يتوسطها حجر دائري لا يستطيع ابتلاعه...

- وما... ما الذي كنت تريده؟! قالها سعيد بتردد.

بصوت حازم أجابه الشيخ قدري: نريد قطعة صغيرة فيها كافة المواصفات المطلوبة، لا نريد لعملنا لفت الانتباه.

أثارت كلماته الأخيرة الريبة في نفسه ثم قال بلهجة ملؤها الاستهجان: في عملكم؟! ألم تقل أنكم شركة للبحث عن الصخر الزيتي في الجبال؟.

أخفى الشيخ قدري تردده وأدرك أن حيطته وحذره قد فشلا وعليه أن يتدارك أمره وعلى عجل قال وهو يتظاهر بعدم الاكتراث: يا لك من غرٍّ ساذج، أي عمل في الدنيا يحتاج إلى الدقة وكلما قل حجمه زادت قدرتنا على حمله في أكثر الأماكن ازدحاما دون أن يستوقفنا أحد، أنت تعلم أننا لا نملك الكثير من الناقلات هنا ونقطع مسافات طويلة سيرا على الأقدام ونحتاج لحمل الأشياء خفيفة الوزن قوية التأثير. أتم كلماته ولم ينظر ولو نظرة واحدة لسعيد، متظاهرا بانشغاله في تقليب ما جثم فوق المنضدة الخشبية.

لم يكن أي مما ذكره الشيخ قدري ليثير اهتمامه فاستطرد قائلا: أنا جاهز لأي شيء، قل ما تريد وسأبذل قصارى جهدي لأنجزه. ما علَّمه إياه والده منذ الصغر أن يكون قويا في كل موقف يواجهه لم يكن قادرا فعليا على تنفيذه، لقد خيب آمال والده فيه عندما عجز عن حمله لأقرب مشفى لمعالجته، ذكرى والده المكلومة لا تلبث أن تتلاشى عن مدى تفكيره حتى تعود ثانية.

صحته التي انهارت والمرض الذي فتت جسده، والفقر الذي يعيشونه وأم عاجزة وهو متمدد فوق الغيم العقيم؛ لا غيمه أمطر ولا هو قوى على تغير الواقع الأبكم... طرقه للأبواب الصماء واستجداءه من قلوب انتعل حاملوها نعال القسوة والذهول.. بضع أوراق لا تعني له الكثير، علاج والده يحتاج إلى الكثير لكنه لم يجده، ولو حفر في الرمال فلن تكون هناك زمزم،

ولا نقر لعصفور، ما وجد غير طائر الموت قابضا على أبيه وهو ممسك يده وعيناه قد تجمدتا وهما تلقيان عليه نظرة الوداع الأخير.

كم من الليالي أمضى وحيدا؟ كم من الزمن احتاج لينسى؟، وكم مرة أوقفته حشرجات النفس وانقباض الروح؟، كم مرة سمعت الجدران الصماء أنينه وصراخه؟...وهاهي أمه ستلقى نفس المصيرذاته؛ الألم الذي يسري بقدميها ويحرمها المسير، ولن يستطيع أن يقدم لها شيئا. أطوار الحياة التي يفيق منها ثم يغيب فيها، تقلبه على جمرها فلا يطفو على أي سطح وهو أقرب إلى الهلام الذي يستطيع أن ينغمس فيه إلى القاع دون أن يرى النور...

النور الذي لن يستطيع بلوغه مهما حاول؛ مد عنقه إلى الأعلى كأعقاب السجائر التي يدق أعناقها، ويلقي بها إلى حيث تسير المجارير.

السماء الرمادية لم تتبدل ولم تتغير ألوانها، ربما تميل إلى اللون القرمزي أياما، ثم ما تلبث أن تعود إلى الرقاد على ظهرها دون أن تفيق على رعد من هنا أو برق من هناك. أي استكانة هو فيها؟، إطراقه التفكير في البعيد لا تمنحه فرصا جديدة، ولا تجعله بحارا ولو في بحر من سراب.

الصمت الرهيب الذي يصيده فيك الغيب أيها البأس يلوكك بدل المرة مرات ثم يقذفك إلى وحل يزيدك اتساخا كما هي دواخلك الخربة؛ في مصيدة اليأس سيكون نُزلك الأبدي فلا تبتئس.

الدوامة التي دارت به في غيب موحل هي ذاتها التي أيقظته من موت مزعوم، هي ذاتها التي أيقظته على لسعة تحرق جلده الكئيب كما هي سماؤه، تلك النقود التي أعادت النور لجيوبه المفتوقة، والتي شهد تساقط أحلامه منها إلى الجحيم، لكن الدفء الذي يستيقظ عليه هذا اليوم مختلف تماما، فكل صندوق صغير بساعة رقمية يصنعه لهؤلاء البلهاء يمنحه فرصا للحياة لا تعد ولا تحصى، سيحمل معه الكثير لشقيقته وأبنائها، لأمه، سيحملها على بساط الريح ويمضي علاجها وسينبش قبر أبيه،

ويرمم عظامه ويحيله جسدا يبث فيه الحياة، وخرج من الظلام للنورمحملا بالكثير من الثقة والصور الملونة للحياة.

قفز إلى خارج القبر إلى حيث يأوي، إلى مخدع الحياة وفنونه العشق وتأوهاته وأنفاس ما استنشق مثلها من قبل، لأول مرة بدت أكثر رفقا به ونبضات قلبه تتقافز...

تلك النبضات التي لم تستطع منع توقفها كلما مدت بصرها إلى تلك الغابات المحيطة في البيوت الإسمنتية المتناثرة تارة والمكتظة تارة أخرى، على مد بصرها وهي تنبش عن أثر لذلك النور الأحمر الذي يمكن لشباك عينها أن تتلقفه وهي تمسح المنطقة الممتدة أمامها، وهي ترصدها من نافذة الطابق الثاني الذي تسكنه أسرتها، صورته وهو يضع مسدسه على جنبه وهو يرتدي زيه الرسمي وقد وضع واقي الرصاص، لا يمكن أن يفارق ذاكرتها الزمنية.

إلى أين تذهب هي وصغيريها؟

-لا عليك. جاءها صوته من بئر حزنها لينتشلها.

-ستكونين بأمان. وضمها إلى صدره وهي تنزف حزنا، وهو يمدها مدادا من مشاعر التضحية.

-احفظي نفسك والصغيرين.

-ها نحن هنا يا عزيزي وبيننا المدى ولا أكاد أطيق البعاد.

-عن أي أمان أبحث وأنت الأمان وأنت السلام وأنت نبض الحياة؟!.

دموعها تتبخر مع الأبخرة المتصاعدة من الطنجرة على النار والفقاعات الصغيرة تطفو على وجه الأرز الأبيض وهو يعلن نضوجه، أصوات الصغار تعلو بالضحكات ولعبة الغميضة والشرطي حرامي، وصوت أمها التي التهم المرض قوتها ومضى يبري قدميها ليتركها عاجزة في سرير خشبي، وغرفة ترسل إليها نبض الحياة من نافذة مطلة على المدى وصوتها الندي يصفو بآيات من المصحف الكريم تتلوها؛ فينقبض قلبها وهي تقول: "بسم الله...

بسم الله" وصورة سعيد تتأرجح أمامها يهوي إلى حفرة سوداء، وسلمى وصغيريها يهويان إلى ذات الحفرة، والنواح يهيل التراب على جسدها المقيد إلى قدمين عاجزتين، وتطفر الدموع إلى عينيها حتى يغيب الصوت وتبقى الدموع تتدفق في صمت ويدها مازالت قابضة على صدرها، وصوت الصغار يعلو عند فتح الباب وصوته يهدر إلى أذنيها فتمسح دمع عينيها بطرف غطاء رأسها وهي تستحضر: "قل هو الله أحد..." وتتبعها بما تتلوه ويلج إلى أذنيه فيسقط منه قلبه ويهوي به إلى بئر عميق.

ومن باب المطبخ تطفر الدمعة من عينيها وهي تسكب الطعام وهي تنظر طلته القمحية وطوله الفارع وهي تذكر زوجها؛ كم تشبهه يا سعيد!

والصغيران ليلى وهادي يمسكان بخالهما وهما يصيحان فرحا: حرامي، لقد أمسكتك... وأصوات الثلاثة تقتحم دمع الأم التي تدفن حزنها في قلبها وسلمى التي تفيض ألما من عميق الحزن والأسى؛ فيطفو على الوجه شبح ابتسامة باهتة يرتجي الغد من الأمس، هضيم حلمهما والكثير من الأكياس المليئة بالألعاب والأكياس والحلوى والأطعمة.

صوت الأم الحزين مكبلا يأتيه وهو يقبل يديها: يا سعيد من أين يا ولدي؟.

أنّت بها وهي تمسك بوشاح أبيض حريري.

فيلثم جبينها ودمعة حارقة لسعتها.

- لا عليك يا أمي رزق من الله، لقد فتحها الله علينا؛ الحمد لله....

-ولكن يا ولدي اقتفي الرزق الحلال، إياك يا سعيد والحرام، يضحكك وما يلبث أن يبكيك ويبكي من حولك.

أمسك يديها وانهال عليهما لثما بالقبل: لا عليك يا أماه: اطمئني، ولدك بخير.

قطعت أسراب القطا المهاجرة دمعهما وهي تخفق بأجنحتها إلى البعيد، وسلمى تدلف على الغرفة وصوت خافت لطرق الملعقة على الصحن الذي تحمله: هيا... هيا إلى الطعام أمد الله في عمرك يا أمي وترين أحفادك.

-يا رب.

رفع الاثنان أيديهما وهما يؤممان...

-هيا قولي هم... وتناولي طعامك.

يقبل رأسها وتهم بالتقام ملعقة الطعام والصغيران يصيحان: نريد أن نأكل.

والضحكات تبث الروح في البيت الحزين.

لم يكن لينتظر نهاية مراقبته للطريق الطويل الذي ينتهي إلى الغابة التي تحيط بالبيوت تارة وتنسل مبتعدة تارة أخرى وأعين الناس ترقب فيهم كل نأمة وسكنة، وهم ما يزالون محافظين على رباطة جأشهم وهو يخفي هاتفه الخلوي ولا يطيق رؤية رقم سلمى، ويطيل قراءة آيات القرآن، بأن يحفظهم ويبعد عنهم السوء.

صديقه يبث إليه حال زوجته وهي تلد في المشفى الحكومي، وأن والدتها بقربها، طفلهم الأول سيولد وربما لن يرى أباه، وتطفر الدموع من عينيه؛ يربت على كتفه ..وهو يهمس: وكلّ الله؛ ستراه، أنا واثق من ذلك.

يتم حديثه: وهي تعاني من صعاب كثيرة فقد أصابها سكري الحمل وارتفاع الضغط وكانت تهدد حياتها بالإجهاض، لكنها تحملت وهاهي بين يدي الرحمة. ويمد عينيه للبعيد وهو يخفي الكثير من الدمع.

-أغارق في بحر الصبر يا صديقي والكثير من الشجون ينتظرك؟

على اللاسلكي يأتيهم صوت قائد الوحدة:عليكم بتوخي الحذر العناصر المشبهة تهدد بعمل إجرامي إرهابي، المواقع المحتملة وسط البلد في الأسواق التجارية، عليكم بالحرص الشديد وتنفيذ قواعد الاشتباك، القليل من الصبر يضمن النجاح.

هذا ما كان يردده في نفسه: الكثير من الصبر أم قليله؟!.

تأتيهم أنباء من بعيد عن اشتباه بتفجير ما ويغيبون والأضواء الحمراء والزرقاء وصفير السيارات يهز هدوء الطرقات...

-القنبلة الجديدة أفضل من سابقتها، أحسنت عليك الآن أن تضبطها لثلاث ساعات، ثلاث ساعات كافية لنصل إلى مقصدنا بين الجموع في وقت الذروة؛ ثلاث ساعات: أنت تعلم نحن لا نريد أن يكون لنا وقت حتى نغادر المنطقة، نحن لا نريد إراقة دماء أحد من الـ... ربما يكونون واحدا أو اثنين، لكنهم كلهم في سبيل الله.

استوقفته جملته الأخيرة دون أن يتمكن من فهمها.. التقم جيبه النقود ومضى، وهو يرفع قدما وينزل أخرى كهائم يصيد السراب، ما تراه غيّره؟ما الذي مضى به إلى حيث يصدمه الصدى فيرده على عجل؟ بعثرة أفكاره ومطر من الأسئلة كالهشيم، قبل أن يلتقطها،لِمَ دغل الريبة متشابك في جوفه الأبكم ينبض بخوف، يلاحق أنفاسا تلاشت في الأخيلة أمامه؟ ما الذي يحدث؟ ما الذي تورط به دون أن يدري؟

النقود في جيبه تعطيه الكثير من الفرص؛ أليس هذا ما سعى إليه؟ أليس هذا ما يريده؟ فليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ويبقي على فرجة الأقدار التي أنالته ما كان يحلم به يوما.

ما لم تكن سلمى لتغمض جفنيها وهي ترقب فتيل الصبر وهو ينوس في قلبها، لكنهما يرقبان الطرقات وتلك الحلوى الملونة في المركز التجاري بقربهم...

-إنه يا أمي عند ناصية الطريق، ليس بعيدا...

-إنه بعيد كفاية، أخاف عليكما، يكفيني خوفي على والديكما...

-لكن يا أمي نريد الذهاب دقائق ونعود، نعدك بذلك...

أمام تصميم الصغيرين وبكائهما رضخ القلب فيها وأطرقت التفكير وهي تمد عينيها للبعيد...

-لا يكفي أنهما يفتقدان أباهما، فلِمَ لا أمنحهما القليل من الفرح؟ مشوار قصير لا يغير شيئا، بل سيمنحهما سعادة، وهذا ما أريد، أومأت برأسها موافقة.

ارتدت ملابسها وجهزت الصغيرين وهما يطبعان قبلة على وجه الجدة الراقدة في السرير، يسيرون معا مودعين الجدة الراقدة في السرير إلى المركز التجاري.

ما بين القلق والانقباض استصرخت قدميها وصورتهم ينزلقون في الحفرة السوداء لا تفارق ناظريها، وتُبقي على آيات سورة الإخلاص: "قل هو الله أحد..." وعلى ساقين عاجزتين.

-لِمَ ينقبض قلبه هو الآخر؟

-لِمَ يشعر بشيء ما ڤي قلبه؟

-لِمَ يريده أن يضبط الوقت؟

-ولِمَ لا يهمه إن فقد اثنين في سبيل الله؟

-لِمَ يريدها؟

كانت كلمة قد سقطت سهوا، يومئ بصمت يقهره: لِمَ أخطأ؟ الحقيقة هي ما قالها، ولِمَ تراه فعل؟... يريد أن يكون هناك أناس يبتاعون الدنيا ويبيعون الآخرة، يريد أن يوقظهم من سباتهم، وليدخلوها آمنين.

طاحونة من الأسئلة تضرب عقله كإعصار: وأين سيكون هؤلاء هم أكيد ليسوا في الصحراء أو الجبال أو أي من المناطق التي تشتهر بالصخر الزيتي؟ الكثير من الحيرة حمل معه وجملّها بالحلوى والأطعمة الفاخرة، هو يريد إراحة أخته التي تشتاق لزوجها، صديقه العزيز سليم، الذي لم يكن ليتركه ليذهب لولا نداء الواجب؛هو شرطي قوي وصبور وله القدرة على أن يتخطى المحن وهو طيب القلب مع أخته الوحيدة سلمى.. أخته التي لن تكبر في نظره والصغيران الشقيان اللذان يملآن حياتهم بالنشاط ، ويقلبان ليل شقتهم إلى نهار...

لم تكن رائحتهما التي اشتمها عندما دلف إلى الشقة الصغيرة القابعة في الطابق الثاني، اشتم رائحة أخرى رائحة الغياب، رائحة الصمت الرهيب، رائحة الموت، الهدوء يصم أذنيه وريح الخوف تنبعث من الجدران، اقتحم الخوف قلبه عنوة، وساقاه بدتا كعكازين لم يستطيعا المسير يزاحم الهواء ليفتح باب غرفة أمه على عجل، فيلتقط أنفاسه المتساقطة الواحد تلو الآخر... أبصرها وهي تقلب الحياة من وراء النافذة المغلقة ورائحة البرودة تسكن الجدران الرمادية؛ إنها قبور الحياة بلا شك...

انتشل سؤاله من بين أنفاسه الهاربة: أين هم؟

جاءه صوتها كوقع الصقيع على حممه البركانية فما زادته إلا عجزا: لقد ذهبوا يا بني إلى المركز التجاري، يريد الصغيران الخروج؛ سقطت إجابتها قبل أن تصل إلى أذنيه وهي تلفحه بلهيب حارق.

-إلى أين؟. يسأل بعصبية دون أن ينتظر الإجابة، يتقافز في الهواء وكأنه يزاحم الزمن بعد دقاته.

لما يظن أن أمرا جللا سيحدث، سيكون الهدف، هناك المركز التجاري، المركز التجاري الذي يمتلئ بالمشترين الذين اشتروا الدنيا...

نعم، الذين اشتروا الدنيا...

والساعات الثلاث قد التهمها النهار وأبقى على أثارها...

-أين هم؟

-لِمَ تبدو الطريق طويلة؟

-لِمَ تبدو خالية من البشر؟

-خالية من الحياة؟

-لِمَ تقاسم الأبرياء الأيمان بأن يكونوا في المركز التجاري، جميع أهل المدينة؟

سيارات الشرطة تهوي كما يهوي قلبه إلى هناك...

-أيصرخ؟ أيسمع صوته الموتى أو من بهم صمم؟

-أيمتد صوته إلى ما وراء الأسوار الإسمنتية؟

-منتظرا ماذا؟

-أن يسمعوه!

-أين هو منهم ليسمعوه؟

-إنهم يشترون الدنيا... الدنيا... الدنيا... يا ويلي...ماذا صنعت؟ أي أبله كنت؟

أي خائن أنا؟

-سيفجرون المكان.

-ابتعدوا...سلمى...هادي... ليلى...

لكن صوته غاب في الانفجار الكبير، الذي أرقد المكان بمن فيه في سباتهم الأبدي؛

غارقين في دمائهم.

لم يكن أمامها وهي تقبض على ساقيها العاجزتين وهي تبصرهم ينزلقون على الحفرة السوداء إلا أن ترقد بسلام، وهي تودعهم جميعا... فليدخلوها آمنين.

السقوط إلى أعلى

..."كونك إنسانا عليك أن تُحدث الفرق". كانت تلك آخر كلماته التي ودعهم بها، مودعا أوراقه وذكرياته معهم في محفظته الجلدية ليمحوه الغياب، لكن الغياب الذي طوى صورته من صفهم لم يكن ليفارقهم، ظل ملازما لهم حتى في أوحش الأوقات، المشهد لا يمكن نسيانه، كان مروعا استفزازيا لا ينم إلا عن نفس بشرية مريضة،

بدأ كل شيء منذ فترة ليست بالبعيدة، كل واحد من الثلاثين يتذكر ما كان يسرع في حدوث ذلك الاعتداء الغاشم، كانوا مجموعة من الفتيان ممن تجاوزا السادسة عشر الذين رأوا أن الاختلاف في الدين جريمة، حلقات من النقاش أديرت في قاعة المدرسة والكثير من المشايخ ورجال العلم ورجال الدين جاءوا لتبسيط الأمور، وبيان: "أن الطريق إلى الله يعني أن تكون محبا لمن حولك وأن هذا أصل الإنسانية، وأن الاختلاف العقائدي لا يعني أن تنكر وجود الأديان الأخرى وأن تدحض وجود المعتقدات، ما عليك فعله هو أن تتعايش بتسامح مع من حولك، لا تكن متطرفا بآرائك...".

ولكنهم لم يصغوا، صمّوا آذانهم وجعلوا يهددون ويتوعدون، لم يحفل بهم أحد، مجموعة مراهقين مع الوقت سينتهون عما يفعلون من إساءة، كنا فيما بيننا نهدد ونتوعد، ولكن الأستاذ فريد دائم القول:

-أن تبين للآخرين أنك قوي لا يعني أن تضربه أو أن تجمع له قوة لا يستطيع معها الدفاع عن نفسه، وربما تلجأ للقدح والانتقاص وقد تستعين باللعنات، ولكنك لن تغير شيئا ستزيد الطين بلة، هذا ما ستفعله فقط لن تستطيع أن تغير من حولك بجبروتك أو انتقاصك، ولكنك تستطيع أن تثبت لنفسك أولا أنك قادر على أن تبقى صامدا متسامحا ذا قلب رحيم وأن

تحب بقلبك؛ هذه اللغة أثمن لغة يا رفاق إنها لغة الإنسانية. التعصب يدمر النفس والتطرف يقليها في زيت الضغينة ويكون الدمار من نصيب الجميع.

لم نعلم أنهم يكيدون ويخططون لعمل إجرامي، لم ندر أن الكره الذي أنبته التطرف فيهم قد جعلهم يقدمون على عمل إجرامي بشع.

-لماذا لم نستطع فعل شيء؟.

لقد كان الحدث أكبر منا، هذه الحقيقة. شعرنا بأن النهاية ستمسنا جميعا فخفنا وانتزعت الشجاعة من قلوبنا وبقينا على خط التماس دون أن نواجه أولئك المجانين...

كانت الساعة الحادية عشرة وكان الوقت مناسبا لأخذ استراحة ما بين الحصص وفي هذا الوقت من كل يوم كنا نجتمع حول الأستاذ فريد، يخبرنا عن الحياة عن صورها عن جمالها. لقد كان في الواقع أخا أكثر منه أستاذا.

لم نكن نعلم أن أولئك قد أعلنوا ساعة الصفر. لقد توهجت الشمس فجأة وأخذت ترسل حمما جعلتنا نشعر بالدوار. وقف أحدهم أمامنا وريح عصفت في المكان، ريح حارة لفحت وجوهنا. كان يحمل عصا غليظة تنتهي برأس مدبب مغروس فيها الكثير من القطع المعدنية المدببة. كان يربت بها على يده وهو يقول: هاي أيها الغرُّ الساذج، لا تتلاعب بعقول الصغار.

كنا محلقين حول الأستاذ، لم نرد له أن يتعرض لسوء ولكنه ربت على أكتافنا وأومأ برأسه بأن كل شيء سيسير على ما يرام...

كان صوته جهوريا، قال لهم: لِمَ لا نتحاور؟، بالحوار نستطيع تخطي الصعاب وبه نستطيع فهم بعضنا، ربما نكون مخطئين وبالحوار نعرف خطأنا ونرتد عنه. إنها الفضيلة التي يسعى كل واحد منا لإثباتها.

لم يكد ليتم كلماته حتى أسرع ذلك القاتل إليه. لقد حدث كل شيء في لمح البصر. لقد حاصرنا أولئك الأوغاد وانهالوا علينا بالضرب بتلك الهراوات التي شجت رؤوسنا وهشمت أجسادنا، وهي التي قتلت الأستاذ -

فريد وليد- بضربات متتالية على الرأس هشمت الجمجمة، وبقي صريعا في أرضه ووهج الشمس والريح الحارقة مازالت تعصف بالمكان.

لقد قضى الأستاذ -فريد وليد- أستاذ الرياضيات من أجل قضية، بذل حياته من أجل أن يحرر الفكر من قيوده، لقد قضى وهو يدافع عن قضية الحرية، الحرية التي لا يمكن أن يوقف تمددها أحد، تلك التي ولدنا وإياها وكانت ضمن صيغ الجين الوراثي لإنسانيتنا، تلك التي نسيها الكثيرون.

كان يوم السابع والعشرين من كل عام في الساعة الحادية عشرة يوما للإنسانية فيه نستذكر الحدث المؤلم الذي فقدنا فيه نصير الحرية.

لم يعبأ يوما بفنون الهزيمة، لم يفهم معنى الخوف لأنه لم يذقه؛ مهمته كانت في أن يمنح طلابه معنى إن تكون إنسانا، لم يكن -فريد وليد- أستاذ الرياضيات وهو يطبع فوق صدره الرسم الثلاثي مختلفا عنهم، ولم يكن كذلك -أنيس- القادم من الهند والذي له معتقداته الخاصة فيه لتجعله شاذا عن مجموعته بين طلاب صفه الذين تجاوزوا الثلاثين، ثلاثين طيفا فكريا وثلاثين رغبة وحاجة وثلاثين عالما وثلاثين فكرة نجاح وثلاثين حدثا استثنائيا وإن طالت القائمة بالكثير الذي يمكن للثلاثين أن يفعلوه...

وهو واحد منهم، لم ينس يوما ما حدث لقد كان متعلقا بذلك الإنسان، وهاهو يتخرج من مدرسته واحدا من الثلاثين -منصور قاسم-، رغم كل ما يحيط به في بيته المتواضع، ما يلبث أن ينهضها تلك الأفكار مطالبا بصمت، بالهدوء، رغم كل ما يحيط به من مصابيح مطفأة للعيش بسلام.

لقد أصبحت حياته طيفا ثملا يروح ويجيء بين صفو الكلمات وسوء الممارسات...بيته المسكون بالأشباح البشرية، كيانهم المسوخ عن الحوار ألهمه الصبر، يتردد صوته في أذنه: هناك دوما خطوة أخرى؛ لا تقف في الزاوية، عليك الاستمرار.

يصفق الباب أمام تلك الكلمات رغم أنها تواسيه في غرفته المظلمة الباردة التي ينحسر منها شعاع القمر. وعلى وهج سراجه الضئيل يمرر آلاف

الخيالات، تسامره وقت الضيق وتشحن همته وقد جعلته إنسانا آخر أكثر تمسكا بالخلاص.

- ما الذي غيّر أحوالهم؟، أيكون مثلهم؟، لكن الأستاذ - فريد- وتلك التجربة المأساوية في حياته قد جعلته مختلفا.

والدته ازدادت في جسدها حمى المادة ووالده التعس قد فارق البيت الملعون، مفضلا المبيت في حجرة شاحنته التي يسوقها ليل نهار عابرا الطرق الصحراوية، وقد اعتاد رحيل الكثبان الرملية مستعمرات الطيور المهاجرة وطرق السراب، لعله كان قد عرف أسماءها وأمكنتها وتواريخ انتقالها من صحراء إلى أخرى...

لكنه لم يكن ليعرف ما ينبت في فكر ابنه من سخط وحسرة!

يتأرجح بأفكاره العقيمة: لِمَ عليهم الاستمرار بهذا الشكل؟

كل طقوس أمه في حثه على ترك الدراسة وكتبه باءت بالفشل، لم يعد يعرفها، الجهل الذي تعيشه يجعله صهيبا جديدا ولكنه على دين محمد وهي كذلك، فلِمَ تلسعه بسياط لسانها؟.

غربتها وغربته في بيت ملأت جدرانه العفونة والكلس ونهشت ما تبقى الجرذان، هو لا يستطيع رؤية غير ذلك، رغم ما تنفقه من نقود على اللوحات الفنية الزيتية والسقف المحشوة بالصور المذهبة، لكنها فقيرة بما يحبه بالحب ذاته الذي تجمد في عروقها..الواقع البائس الذي يعيشه قاده إلى هناك إلى حيث يبزغ النور من شق الجبل، حيث يغشى الأعين هناك هذيان من نوع آخر؛ إنه الهروب من الواقع الأكثر مرارة إلى الواقع الأكثر برودة ونشوة وجمال.

-إنه شكل جديد من الهروب. هكذا همس صديقه في الجامعة في أذنه: ليس عليك أن تتحمل عبئا جديدا بعد اليوم، بل وستنسى ما أنت فيه.

...سحر الكلمات التي ينطقها في ظل شجرة السرو عند عامود الإنارة القديم في جامعته جعلته يحلق إلى عالم آخر، كلماته أضاعته بين الغيوم

المبحرة في سماء زرقاء، يتمدد بجسده المنحني فوق سرير من أحلام وقطوف دانية تداعب صدغيه والكثير من الولدان يحملون له أطايب الطعام والشراب؛ سقط على وجهه قطف آلمه فأيقظه، كانت تلك صفعة جميل محب للهزل، رغم أنه يسميها هزلا لكنه لا يشعر بها كذلك، ما يشعر به هو الاشمئزاز، إنه يذكره بالأستاذ أديب في مدرسته قلبه لا يعرف الرحمة رغم أن الكثيرين يحبونه لهزله، يذكر ذلك اليوم الذي لوحه بكفه الأيمن دون علمه، لقد كاد أن يصيبه بالجنون، والضحكات كانت هي من تحيط به وتصم آذانه.

أفاق من هذيانه مترنحا على إثر تلك الصفعة التي جعلت الغيوم تتفرق أمام الرياح الهوجاء، شعر كم هو بعيد عن منصة القوة التي يستطيع الوقوف عليها والتعبير عن نفسه، عندما طاف بنظراته كان الغيم قد هجر السماء وبقيت الشمس الحارقة تذيب ما تبقى من أحلامه.

"الطريق الطويل، تبدأ بأول خطوة، عليك أن تحزم أمرك..." لم يعد يطيق تلك الكلمات التي تدق في أذنيه كناقوس خطر.

- لِمَ تصمم أيها البطل-فريد- أن تُبقي روحك معي؟ لِمَ معي دون غيري؟

شيء في داخله يحرقه، البركان الغاضب في داخله يتأجج ثورانه، حممه التي ينفثها لتحرق ما حوله، لم يعد يملك قدرة على الصبر وفاتورة الواقع تثقل كتفيه؛ لقد فقد بوصلته يدور حول جسده الخائر كدبوس مشكوك في السحاب، يجري تارة ويستريح تارة عند كل إشارة تدله إلى ذلك الجبل حيث يرى النور، البصيص الذي انطفأ عن بيته السكني، عن حجرته الباردة حيث تزكمه العفونة، كان يمكن أن يتحدى كل شيء لولاك يا من أرقت الدماء وسكبت النيران لتلتهم كتبي وكل ما أحب، وماذا أحب أيها العالم المجنون؟ أحب كتابا وأوراق وقد خليت كل أطماع الدنيا ولمعانها لكم واكتفيت بأوراق تهيم بي في كل مكان، خارج حدود منطقكم: فلِمَ ثقل عليكم هذا؟ ثقل عليكم أن أكون زاهدا بجنوني؟!.

وطعنتني في المقتل حين نطقت وأنت تلتهمين الغضب المجنون: نحن لسنا أصحاب علم، عليك أن تعمل كي تكسب المال.

-لِمَ عليه أن يراها شبحا يتقاسم أيامه والظلم والشقاء؟.

ورغم كل ذلك فالقليل من كل شيء يمنحه الثقة، الثقة المسلوبة التي تستطيل وتتمدد ثم تهيم تجعله يدور في دوامة تسقطه على الحفرة المظلمة، لم يعد يشعر بقدمه اليمنى ثم اليسرى حين تمدد على الأرض الخلاء وجسده الموصد على أغلال يشده إلى الأسفل، صرخاته لم تسمع ميتا فأنّى لها أن تسمع من حوله ومن بهم صمم؟.

الكثير من الهذيان يصيبه هذه الأيام، وصوت من بعيد يأتيه ربما يعاني من أوجاع في جسده الواهن، يفتح عينيه يكتشف أنه في عالم آخر، أشباحه كموج البحر.

-إنه يستيقظ؛ لقد فتح عينيه، جسده بخير. صوت يأتيه وكأنه في بئر عميق.

-إنه صديقي .

لم يكن يهذي بلا شك هاهو الجبل أمامه حيث يستمتع بالحياة الصماء لكنه لم يعد يطيق السير أكثر، الجبل أمامه لكنه لم يستطيع الوصول إليه.

صوته يقترب منه أكثر وأكثر: لقد أخطأت الهدف، لن تهرب من مشاكلك باللجوء إلى الموت البطيء، عليك أن تواجهها.

-ولكن كيف سيواجهها وهو أعزل؟.

خيال والده يقتحم عزلته وصوته الحزين يأتيه من كل صوب: لِمَ فعلت ذلك؟، لم أردك أن تصبح مدمنا!، لماذا تفعل ذلك بأبيك؟، لقد تعبت من أجلك يا ولدي وطعمت التراب واكتسيت بخمار البؤس وعاشرت الليل وفزعه من أجلك من أجلك يا بني...

جبينه يتصبب عرقا..أيها الطبيب أهو بخير؟.

-نعم، إنه يقاوم..ستكون له فرصة الحياة.

وهم يزفون إليه الجنة وحرائرها وقطوفها، وصوت ذلك الملعون يهمس في أذنه: لا عليك لن تشعر بشيء، ما عليك سوى أن تمد ذراعك وتعيش في الجنة، وخزة صغيرة وتصبح إنسانا آخر.

...لكنه قابض على مخاوفه، لن يجرؤ على مد يده، لن يقو على تحمل الألم.

نداء أبيه يأتيه من بعيد وطيف أستاذه ينبض بالحياة: كلاهما يراني والله يفعل ذلك بالتأكيد، لقد وثقوا بي، لن أستسلم، لن أصل إلى هناك، لا أريد ذلك النور، عليّ أن أعود، نعم، إنني جبان عليّ العودة إلى بيتي.

-جسده ينتفض كما عصفور جريح؛ ماذا نفعل أيها الطبيب؟.

-إنه يصارع كل ما مر به، عليه أن ينجح، لن أمنحه مسكنا، عليه أن يتخذ قراره.

"الطريق الطويل يبدأ بخطوة... يبدأ بخطوة". لم تنطفئ الكلمات في فمه وهو يتم ترديدها، وستار الغروب قد أظل ما ذاب به من الشفق الأحمر، لقد لملمت شمسي غدائرها ومضت. أخذ ينطق أبياتا من الشعر، سيمضي هو الآخر، لكن الغشاوة فوق عينيه لن تمكنه من رؤية الطريق أمامه، أخذ يجري كالمجنون على غير هدى، لم يعد الجبل أمامه؛ لقد أخذ يبحر في الطريق البعيد وقد التهمت الضوضاء مخاوفه، لم يعد يعي ما يدور حوله؛ نباح الكلاب ونعيق البوم هو كل ما يدور في رحى الخوف الذي يطحنه: ليس هناك بشر... ليس هناك بشر... صدى صوته يشبع الصمت ويغيب، ومن بعيد تتلقف عيناه السراب المضيء: إنهم البشر. لم يعد يقو على المسير ألقى جسده، وقد شق صمت الليل صوت كوابح سيارة مسرعة.

- لقد قرر، نعم لقد اتخذ قراره بالحياة.

رقصة قبل الوداع

طقطقة الحطب يخفت نورها المتوهج في الغرفة المظلمة وألسنة الأبخرة تنسل مسرعة عبر المدخنة، فتتلقفها الغيوم الرمادية لتتساقط محملة بالمطر، وصوت الشيخ المجنون يفر مع حبات المطر، وتمحى أثار خطواته في الطريق الترابية وقد أُشبعت بماء المطر، فلول صوته هي التي لم تصل إلى أذني كاملة ولم يسمعها، رغم أنها تصدح بعد المغيب وتصحب هزيم الليل، وهو يرقب سبات الوهج من موقده تسري حينها نداءات بعيدة لذلك الشيخ كالقشعريرة في جوف الليل: أنتم مساكين نهايتكم قريبة أيها النيام، نهايتكم قريبة... ويغيب في الغيم الممتد على السماء، وهو يتقلب في فراشه يسوق آمالا في أحلامه فوق وسادته، حتى سكن وهو يحتضن زوجته إلى صدره...

ووقع خطواته ذلك الفار إلى البعيد وصرخاته لا تطرق النوافذ المغلقة وقد أيقظها هدير الرعد وسيول المطر وقد مشطت الأسطح الملساء...

ويومض نور القمر على قرية الوداد ليتم ما يفعله كما كان طيلة الأشهر الأخيرة، ولكن طارق قرر أنه سيعقد صفقة الهجوم لم يعد بمقدوره الصبر أكثر، الأسلاك الشائكة أخذت تتكاثر بسرعة جنونية حول القرى البعيدة والقريبة على حد سواء، لم يعد بإمكان الكثيرين العبور من بيت لبيت؛ إنهم يُعزلون، نعم، هذه هي الحقيقة.

لم يكتف صموئيل بذلك السور اللعين الذي يمتد كأفعى جرسية على طول الشريط الساحلي عازلا ساكني القرى عن بيوتها، وسائرا إلى حيث يهزمه البحر، وسيهزمه بنفسه مع سالم وياسين، رغم ما تشكله هذه الأسلاك من خطورة على حياته؛ قضمُها بمقص لم يعد ممكنا بعد أن دسَّ ذلك الشيطان الكهرباء فيها، ولكنه سيتحداه سيمضي بأيّة طريقة، لن

توصده احتيالات المحتل وذكاؤه، سيهبط عليهم من حيث لا يدرون كتلك الخناجر وراء الجبال الشاحبة.

-أليست الحرب خدعة؟ وهو المحتل في حالة حرب!. لن يكون المجرم قاضيا مهما ادعى ولن يكون قدّيسا مهما أنجبت عاهراته أبناء صالحين.

يهمسون في أذنه: أنَّه لم يحن بعد موسم قطف قطوف الغضب.

-ألم يعلموا أن بيارات من أفراح حمراء؟. ما عادت تفوح منها رائحة البرتقال، وطريق السلالم الصاعد إلى البيوت الجبلية بدأ يتصدع، لم يعد الطريق آمنا ولم يعد ساكنوا البيوت المطلة على البحر الأزرق وغابات الزيتون بأمان بعد سلسلة التفجيرات التي حدثت هناك، حيث يقبع الجبل الأخضر كناسك يمد يديه إلى السماء، وحيث تمدُّ شباك عينيك إلى أسراب الأسماك المهاجرة وتلك التي التقمها الزيت الطافي على الشواطئ وقد نفقت، لم يعد للبحارة قدرة بأن يُسيّروا قواربهم المحترقة وقد ابتلع الحريق شباكهم وسلال الصيد.

-تنوح يا جبريل، ولكنه يمضي مقتفيا أثر ابنه عبد الرحمن؟!. قيل: أنه عبر البحر ليلا حتى عثر على ملك البحار، وهناك آواه إليه وأسكنه في إحدى الممالك التي تسكن البحار، وها أنت يا جبريل تقتفي أثره؛ أتريد أن يُسكنك ملك البحار إحدى ممالكه وتهجر زينب وابنتيك حبيبة وخالدة، لِمَ لا تسمعني؟، عُد... لمن تركت بيتك؟! لكي يأخذه صموئيل ويهودا ويقيمان فيه رقصة الهانوكا؟ لِمَ لا تفيق؟! سألحقك يا جبريل وإن صَمَمت أذنيك وسألتقطك بصنارتي... أتحسب أنك وحدك من يجيد الصيد؟!.

جذبه طارق إلى الشاطئ وهو ما زال فاتحا عينيه...

-لا تمت يا جبريل، مازالت زينب تستطيع الإنجاب؛ ازرع أرضها ببذور قوية لتعمر لك أرضك بعبد الرحمن وعيسى وموسى وداود، لِمَ لا ترد عليّ يا رجل؟ لِمَ قضيت بهذه البساطة؟ لتحترق كل المراكب وليبتلع البحر شباككم يا حمقى؟.

أخذ جسد جبريل ينتفض بين يديه ولا يرجع صدى...

-لا تبتئس يا طارق، هذا حالنا نفضل الموت على المواجهة وأسراب القطا تقتحم الصمت المطبق بين البيوت الإسمنتية التي ترتعش جدرانها كلما سمع ساكنوها صوت الرصاص...

-ولكن يا شيخ عبد الوهاب، علينا أن نستمر لن نستسلم بهذه البساطة، هم مجرد حفنة من الحثالة، لا يفوقوننا عددا ما يتفوقون علينا به هو الأسلحة، فقط تلك الرصاصات اللامعة التي تخترق أجسادنا الكرتونية لتسبح في بحر من دماء حمراء.

-علينا بالصبر يا طارق: الطرقات مازالت خالية من القنابل ورائحة البرتقال تزكم أنوفنا والأسماك لم تهجر ميناء حيفا بعد.

-ونحن لم نفعل شيئا.

-بهمتك وهمة ياسين وقاسم نستطيع، صدقني هي ما نحتاج إليه.

-ولكننا مجرد ثلة من الرجال والباقين؟.

-سيلحقون بكم، كن صبورا، سيلحقون بكم.

ميساء تذرع بالغرفة المربعة وهي تتلحف بياض جدرانها المسكونة بصور أحبتها المفارقين، وتلف يديها ثم تصفقهما بجنبيها، وتقبض إليها جزءا مما ترتدي من سواد ثم تلفهما ثانية.

تُدَور في داخلها رحى معارك لم تحسم بعد، وتُحكم قبضتها على ألف سؤال:

-كم مرة احتبست صورتي في نفسك، يا طارق؟.

-لِمَ عليّ أن أمرر شريطا يقربنا وأنت تصمم على إبعاده؟.

-لماذا ترسل ذراع الخوف ليُعمل في نفسي دوامة لا تفتر؟.

-أتريد أن ترحل كما رحل كل من أعرفه؟.

-أمي وأبي لم تنس بعد كيف احترقا في بيتهما كما احترق أبناء عمومتي في قريتي التي غابت في الدخان الأسود وحاخاماتهم يقدسون المتطرفين عند الطريق الذي تضيئه الشمس، قُدّر لأخويّ جبريل وياسين أن يعيشا، فقد كانا مع قوارب الصيادين وهم يجوبون البحر بحثا عن سمك والسمك يا طارق كان يحترق في مصائده!.

تردد الحوقلة وتنصت للصفارات التي تأتي من البعيد من خلف الجبال التي تنبت البيوت في واديها وتحيطها بسياج من حجر أسود، حيث تخلو الطرقات إلا من الغربان والظلال، ومازالت سيمفونية من عويل ونحيب هي من تجر أذيال خيبتها في الصمت المتقطع، وتخفت أنوار مصابيح سيارة القادمين الجدد من وراء البحار ومن الشتات في مسيرها وكأنما تسير على القبور وتنسج صور الموتى...

تصفق وجهها وهي تذرف دمعا حارقا يحرق خديها الغضين، وهي لا تكف عن الترديد:

-تغفلين صورة الموت يا ميساء، ربما...

وتضربين وتضربين بكفيك وجها و وجنتين ذابلتين.

-كم مر عليهما من العمر؟ ثلاثون؟.

تستحيلهما إلى اللون الأحمر بعدما تجمد الدم في العروق وخيط رفيع من كحلك الأسود يسير على امتداد صفحة وجهك القمحي، وتذبل عيناك وتمدان سراجا من أمل فوق تلة ترتعش من فوقها ظلل، من فوقها سحاب...

-للرجال جنون كالأطفال.

يأتيك الهمس من خلف الأبواب الموصدة، تتبعها ضحكات أنثوية وهمس وغمز، رغم دقات قلبك المنقبضة و رعشات جسدك والأسياخ التي سكنت في ساقيك، مازلت قادرة على سماع دبيب النملة، تصيخين السمع للهمسات، يأتيك متبعا بضحكات أنثوية خافتة...

-وتلك المسكينة، كالمجنونة؛ للجنون فنون.

وتقبضين على مقبض الباب وفي صدرك بركان تتدافع حممه.

-من ستجرف في طريقها؟ وتريدين إطاحة خصميك، وتريدينها معركة ملاسنة؟ ومن يدري، ربما معركة بالأيدي؟

ويدور مقبض الباب ويرتد بركانك إلى مكانه بهدوء و يوقف معه قلبك، تديرين جسدك كما تلوحين به في الهواء كريشة، رغم ما تحملين من جسد لامرأة مكتنزة قد جاوزت الثلاثين وهو ماثل أمامك كتمثال رخامي لا يلوي على شيء؛ كل ما فيه لم يتغير: ربطة العنق لم تبتعد عن مكانها وعقدة الأزرار، عاد كما خرج، وتلك الوردة الحمراء التي تصممين على وضعها له في جيبه الصغيرة اليمنى، رغم تحايله ورجاءه، وتقفين حاجزا بينه وبين المرآة وتمدين ذراعيك تطوقين عنقه وتلقين برأسك بهدوء وتتوددين بنهنهات عميقة:

-أنت الأصحاب وأنا الأصحاب.

عيناك وجلتان و وجهك بارد يا طارق، ألقيت بالسلام ومضيت قاطعا كل محاكماتها الصامتة.

- لم تدق الساعة الثانية عشرة بعد تتمتم في صدرك.. وتُسمعُ نفسك هذيانك: مازال هناك متسع من الوقت للبقاء دون طائل المسؤولية، البقاء حرا لدقائق خمس، وهي التي يمتلكها، لن يترافع أمامها كما يفعل كل يوم في محكمة هشة أستحوذ عليها أولئك الجبناء.

قبّل جبينها قبل أن يرتمي إلى وسادة بلا أحلام في سرير بارد؛ تضع يدك إلى الخلاء ويعلو شخيرك، وهي يبرد كل ما فيها كما لو صببت كتلا من جليد فوق بركان هائج، صوت من داخلك يُسمعُك يا مرتجية العزاء من قلوب قالبها من حديد...

صوت فشلكِ يجوب جوفك الفارغ: ألهذا الحد أصبحت غير محتملة يا ميساء؟ لم يعد يحبك، هذه الحقيقة التي سعيت دوما لتحقيقها، لقد سجلت هدفا في المرمى،

وماذا تريدين الآن؟ لم يكن الصغار الذين تتمنين هم السبب؟ إنه الحب...

وصوت آخر يصدح في جوفك المنقبض: تنصتين لشيطانك القذر؟.

وتدور معركة بين شيطان قذر وملاك رحيم وأنت تقفين عند نقطة لا تتعدى كونك منهزمة:

-نعم، هناك أخرى يحبها وقريبا سينساك...

-كف عن ذلك لا تروع قلبها.

-ابتعد أيها البائس؛ لِمَ يريدك؟ أنت مجرد امرأة بور، جسد بلا نفع؛ ما قيمة الجسد إن كان لا يحمل ثمارا لم ترع في أحشائه بذور الحياة؟.

وتقبضين على جنونك وتهمسين أن المعركة لم تنته بعد، حين تدسين جسدك المضطرب في الفراش البارد وشفتاه لا تزالان تهذيان: جبريل... جبريل... وسهم ينغرس في صدرك وقد أيقنت أن سوءا ما قد ألمَّ بأخيك، وربما يكون الموت...

انزلقت خيوط الشمس وأخذت تهذي في العصارى بردائها المحمر وهو ينتشل آخرها ليُتمَّ نحت الصخرة بين يديه.

- من هنا سنبدأ مهاجمتنا للمتطرفين اليهود، علينا أن نوقفهم عند حدهم...

-نعم، تعتبر هذه الصخرة المحيطة بها أشجار البلوط مخبأ جيدا، نرصد منه تحركات أولئك المهاجرين الجدد، ونقاط تمركزهم وسنواجههم بنفس الآلية التي يقتنصون بها أطفالنا ونسائنا.

التفت إلى صاحب الصوت طارق وربت على كتفه وقال: لا أريدك أن تشارك يا ياسين في هذه الأحداث، ما زلت شابا في مطلع العمر ولن تحطم قلب أختك ميساء يكفيها فقدان جبريل؛ فلتكن لها يا صديقي وخطيبتك وفاء مازالت تنتظر ميعاد العرس... أم تراك نسيت؟.

أطرق ياسين النظر في مسدسه الذي يحمله، ثم حلق بفكره إلى البعيد..جاءه صوت أمه والزغاريد: مبارك يا ياسين..قريبا سنخطب لك وفاء، ها قد نجحت بشهادة الإعدادية والبنت ليس لها إلا بيت زوجها؛ ما رأيك؟.

طار قلبك يا ياسين حينها وداريت فرحتك وحضن أمك يلمك، لكن الحمرة في خديك لمحها أبوك فتنحنح قائلا: لا تخجل يا ولدي، الحب والعشق لا يعيبان الرجل، بارك الله لكما بارك الله لكما.

وزرت بيت وفاء وكان طارق حينها يدرس في كلية الحقوق في الجهة الشرقية من أرضك، لقد قطع الجسر وغاب عن اليوم الجامعة وجاء ليحضنك ويبارك لك، قرارك بأن تتوقف عن دراستك عندما نلت الشهادة الثانوية، لم يكن هروبا من الدراسة بل كان هروبا من وجه أبيك الذي تملأه التجاعيد وكهولته التي لم تعد تخفى على عين أحد، لم يعد الحاج سليم قادرا على أن يتابع عمله في حراثة الأراضي و رغم أنك تحب الصيد؛ قسمت أحلامك بين الشباك وبين حبات التراب ونبت أنت في كهف القرية وغادرها طارق.

-لعمك مال كثير، كان ذكيا ومحظوظا في تجارته، و ها هو يرسل طارق للدراسة وسيرسل وفاء ومن بعدها سناء، لن ترضى وفاء بالإعدادية.

قالتها له وهما ينسحبان بظليهما إلى الشرفة المطلة على بيارات البرتقال:

-لن أتوقف عند هذا الحدِّ يا ياسين، أريد أن أكمل تعليمي، أحلم بأن أصبح معلمة في مدرسة القرية وأعلم الفتيات؛ كفانا جهلا يا ياسين، ينفطر قلبي عند رؤية الفتيات وهن يتزوجن دون أن يعرفن القراءة والكتابة، إن علمت بنتا يا طارق علمت أمة، أمة عالمة تستطيع أن تبني، وأمة الجهل لن تبني شيئا بل ستهدم يا ياسين.

-وماذا عن خطبتنا يا وفاء؟.

-أنا موافقة يا ياسين، قلبي متعلق بك، ولكن أريد تأجيل الزواج حتى أكمل دراستي الثانوية ثم معهد المعلمات ونتزوج، ونعيش معا عمرا، ستملني فيه.

وضحكتما كثيرا، وهاهي الأعوام تعبر بقطار العمر...

حريق في القرية يكشر عن أنيابه ويلتهم أبويك، وميساء أختك الوحيدة يطلبها طارق للزواج شفقة ليُتمها فتطير فرحا، وتزغرد، كم أنت مضحكة يا ميساء!.

وجبريل يقرر اللحاق بعبد الرحمن ويُغرق نفسه وينقذه طارق ليخرج ميتا، و وفاء أنهت المعهد وماذا بعد؟

تهبط بأحلامك على أرض صلبة...

المستوطنون الجدد يقتلون كل أحباءك ويحاربونك في أرضك وقوتك، ويغتصبون النساء كما يغتصبون الأرض...

-أين ذهبت يا ياسين بفكرك؟ لِمَ لا ترد يا رجل؟.

-هاه...

-تفكر بالعرس؟ آه يا صاحبي؛ كم أود رؤية ذلك اليوم.

-دعونا من هذا الكلام يا صاحبيّ.

-معك حق يا سالم.

- سلسلة التفجيرات غدت قريبة من البيوت، علينا أن نُخرج ساحة القتال بعيدا عن بيوت القرية، مهمتنا الليلة أن نهاجم سيارات المتطرفين في منتصف الطريق قبل أن تصل إلى القرية هل الجميع موافق؟ قالها طارق بحزم.

وأجابوه بنفس واحد: على بركة الله.

المطر الذي يهب الحياة يغرق ما تبقى من خطوط في الأفق، وتذوب عيناك في الأبخرة المتطايرة من كوب الزنجبيل، وأنت مازلت تنتظره وكأن ذلك الخيال الذي يراودك في الحلم سيطرق الباب في أية لحظة.

-لِمَ يتملكه هاجس ما؟من تراه الغريب الذي يطرق أبواب أحلامه ويقلقه فلا يستطيع النوم ولا يستطيع المضي في الدفء؟.

تهجر كل شيء وتطيل السهر إلى جانب الموقد، تطربك طقطقة الحطب لكنها ما تلبث أن تهمد.

-لقد ملتك فلِمَ لم تملها بعد؟.

-ما الأمر يا كامل؟ أراك شاردا...

أمر ما يقلقك منذ بضعة أيام؛ ما هو؟ أخبرني، ألست سعاد زوجتك الحبيبة؟.

قالتها وهي تطوق عنقه بذراعيها وتطبع قبلة على خده، فيميل برأسه إليها ويمسك يدها ويقبلها:

-لا أدري يا سعاد؛ هناك أحد يمنعني من النوم.

أثُارها الأمر فهمّت إلى كرسي وجلست إلى المائدة الصغيرة وأزاحت الأطباق من أمامها وصوت إبريق الصفار مازال يصدر معزوفته...

بث إليها ما به من حيرة فأصابها هاجس هي الأخرى:

-ترى من يكون؟.

وجلسا بهدوء وكأن على رأسيهما الطير...

-من الغريب الذي يمد خيوطه إليهما؟

طرقٌ خافت وصل إلى أذنيهما..قلبا نظراتهما معا:

-أتراه الغريب قد أتى؟.

أسرع إلى الباب عابرا المطبخ إلى حجرة الجلوس وقد وضعت يدها على قلبها وهي ترقب المشهد، وهو مازال قابضا على مقبض الباب لا يمتلك القوة لفتحه...

بالكاد شق الباب حتى هوى عليه جسد مضرج بالدماء وصوت ضعيف يأتيه من صدر قد اخترقته العديد من الطلقات: أرجوك ساعدني.

-هل نملك الضمادات الكافية لأجري له عملية سريعة لإخراج الطلقات؟. قالها وهو يتم وضعه على السرير.

-نعم، أيها الطبيب سأجهز كل شيء..لقد فقد الكثير من الدماء؛ هل تعتقد أنه يستطيع النجاة؟. قالتها وهي تضع الكمادات على رأس ذلك الغريب.

لم يجبها فقد كان مشغولا بإعطاء حقنة في الوريد...

أزال القفازات وأتمَّ تنظيف المكان بسرعة من الدماء ثم قام بتطهيرها

سألته ثانية: أراك متعجلا يا كامل ما الأمر؟.

-أريدك أن تتخلصي من كل هذه الأشياء يا سعاد بأسرع وقت.

-لماذا يا عزيزي؟.

-أظن أن هذا الشاب مصاب بنيران المستوطنين، سيبحثون عنه لا محالة.

-ماذا؟. قالتها وقد وضعت يدها على قلبها، وسألت بضعف: وكيف وصل إلى بيتنا في ريف المدينة.

-إنه شاب قوي، ويجب أن نعتني به.

أجهشت بالبكاء، حضنها وهو يهمس:

-لا تخافي يا عزيزتي؛ إن أصابنا شيء فسننجو كما سينجو هذا الشاب.

لا تبصر الحرية تلك القلوب التي ينتعل حاملوها أحذية من رخام، والشهوة حتما قيد من قيود العبودية، وأنت أيها الطائر تبقى بعيدا تغرد من فوق غصن، بالكاد تستطيع البقاء على غصن قد تبرأت منه أمه أم انسلخ عنها طوعا أم يد امتدت إليه لتعلمه فن الرضوخ؟ ما كان لم يستطع أن يلوث فن الحرية لديك، تلك التي تعيشها أيها الطائر المفارق لسربك والبعيد عن أرضك ومهاجر إلى وطن فيه ريشك، وفيه غيرت ريشا وفقدت جزءا من كيانك الغض؛ كما أنت أيها الصغير بين ركام الصخر الأصم وأنت تتبع عزفك و أنا مثلك أعزف من لحنك الشعبي، ويبقيان على نفس الإيقاع وأذن الجبال من حولك تثيرها بجنون؛ فتلفحها الريح والرمال الملتهبة وتغيب بسكونك إلا من عزفكما، وبين شقي الرحى ولدتَ حيث تطحن الأوجاع مع الجوع والفقر سيد له تابعوه، والأتباع صم بكم، لا يلوون على شيء.

لكني فقدت منطق التبعية بسخطي عليكم أيها البؤساء، أريدها أرضا حرة لا سيد فيها ولا مسود لا جبال جذذ ولا غرابيب سود، زرعت في العتمة في البيوت الطينية نورا حيث العصارى ترفل بردائها وتُبارك بماء الشفق الأحمر بلا حورية، وأنا رغم جنون صغري و فيّ بركان متأجج.

طعم الجفاف والرمال الذهبية التي تثير الكثبان بجنونها، وتحفك وتقلب مضجع الهوى في نفسك...

كل ما فيك يا جبال راقني، وجعلني أتمسك بسلاحي بقوة وقد اغتصب العشق صمتي حيث البكم كثر، ولكن الأزميل المريب هو صانع المعجزات.

يقال من رحم المعاناة يولد العباقرة وكنتُ أحدهم وكنت أنت مصطفى واحدا من النجباء.

- يا قدرية فيه شيء لله. نطقها الأب المحب لصغير يرتع في أرض الله وقد دُفن فيها الأسياد. أومأت برأسها وقد باركت هذا الطفل ذي السنين الأربع وأتمت إشعال المباخر الأربع وجَعلتَ تقفز أيها المسكين فوقها، لتُخرج الأرواح والبخور يحرق فيك أنفاسك وينقض على ما تبقى من أنفاسك وتغمض عينيك وأنت تُحلق إلى حيث تجلس القرفصاء، متابعا بنظريك، كل صغيرة وكبيرة من تلك التماثيل وتلك الحروف التي أنجبتها الأهرامات.

وتَغيبُ عن الوعي أيها الطائر المحلق وفي أذنيك قرع الطبول وتبقي على تغريدك أيها الطائر الحر وصوت الإزميل يؤنِسُك...

-من أي عجينة تراك أم أنك ممن جُمع على يد الأنبياء يوما؟.

وبقيت على عهدك لي، تؤنسني ليل نهار، واستبقُ الصباح بخطوة فأراك رابضا على ذلك الغصن المتهاوي...

وتكبرُ أيها الشقي وتُثير أعين المارقين والأعين المختلسة لتلك التماثيل؛ ما تنحته بيديك يثير ذلك القلب في حوراء، فتصلها بسهم من قلبك، سهم بين قلبين على صنم بارد؛ فترفرف كما أنت أيها الطائر، وتلهو بجديلتها قربك ولكنها تعزف غير أُغنيتك، تكون أنت بطل كلماتها:

أعشقك يا واد يا اللي بتنحت من الصخر بشر...

و لست بشرا حين امتنعت عن تقبيل خدها الخجل كوردة حمراء مُلئت بالدماء من أجلك وبقيت تطالع القلب، وبين القلب وذلك السهم بحور وفيافي يا حوراء، بينهما تماثيل من صخر، وتقلب عينيك بينهما وحوراء تقرأ كلماتك فتطبع قبلة على خدك وتفرُّ تطويها الرمال الحمراء...

وتهيل الكثبان على أثارها وتنمحي ذكرى كل شيء، وتُبقي على لسعة قبلتها التي أودعتها خدك.

-أي منكما أذابته شمس صحراءه ذلك الصنم؟.

في القلب مازلت قابعا، مكانك لم يتغير منه شيء؛ فتمرُّ بك عينا جميلة الضريرة وتلمسك وتلمس بيديها المرتعشتين ما بين يديك، فأذبتها أيها الساحر، تفر مولولة...

-لما تراها فعلت ذلك؟.

-ما الذي رأته منك ولم يره أحد بعينيه؟.

-وي مصطفى مسته الجن، إنَّه مخاوٍ للجن، آه من الجن وها هو يصنع البشر، ينفخ الروح بالصنم...

وأعين أخرى تلحفت الغيب نبشت في القبور ودفنت ما عمل به إزميلك وباعته؛ إنه إرث منذ الأبد وكنت أنت أيها الصغير دائرا في رحى الساقية، ظمئ لا تستقي الماء...

وأبقى الإزميل معملا بالصخر فيتكون فيه روحا وجسد، لكنه أصم.

وصوتك يأتيني من بعيد وألسنة الجميع من حولي بكم وتُسمع نفسك وإياي في العراء...

من البعيد يأتي صوت فاطمة مغطى بالرمال، وقدرية تندد بصوت مجنون: الصبي مجنون لا تدرين أين هو إن غافلته الرمال أم التقمه الغياب؟ وفاطمة ترتفع عقيرتها بالغنا:

رُدَّ لي يا غيب حبيبي...

رُدّ لي إنت أعلم بقلبي...

يا رب تخلي الصبي...

وتبني فوق الغيم بيتو...

-ما أدراك يا فاطمة أنني سأرتفع فوق الغيم ببيت؟.

وقد فرت حوراء وبقيت لسعة على خدي، ذابت في مياه الواحات وغابت مع السراب وبقيت في اللولب أدور وأدور وأنا صعلوك صغير، لم أر سوى

القليل من الحروف وتتلمذت على تركيب الكلمات وتسطير سطور بألوان من كلمات مرصوصة، مصونة كما شق الحجر، أيها الإزميل.

ويسمع عزفك الصم في البعيد وتخلق من الصخر أحياء بلا أنفاس؛ لكل منكم تمثال، لكل منكم مثيل فهل أنتم منه أم أنكم منه براء...

-كفر الصبي يا جاب الله، كفر الصبي ولعنته الملائكة، وحلت اللعنة علينا يا قدرية. وتثير فوق رأسها التراب ويأتي صوتك مخنوقا: كفاك ولولة يا امرأة، يا قدرية الصبي معجزة لم تنجبها النساء، لقد بقرت البطن التي ولدته ولن تلد من بعده، داه يخلق من الحجر تمثال.

وبقيت مشكوكا بين ال قد ويكون، أسيرا في أرض، ليتحول عنها إلى حيث يملك حريته، وأنت لست بأسير وتملك حريتك ولكن المرض يجتاح جسدك ويُبقي على تغريدك أيها الطائر يأتي من جوف البئر، وقبلة حوراء تلسعه كلما قلب المضاجع، ويجتاح جسدك الغض المرتعش كذلك العصفور الذي عزف لحنا وغاب بين الصخور.

وسقطت أيها الصغير فغدوت كمن مد رقبته للسلاسل والداء وتعففت عن الدواء ولم يكن هناك دواء غير ابتهالات جاب الله وعيناه اللتان طافتا السماء وقلبتاها طولا وعرضا وآيات قصيرة حفظتها فاطمة، وقالتها بلهجتها الطويلة؛ فكانت أشبه بالغناء وبقيت طيور الرحمة تنازع أمرك وحين تهادنت مع حماك، أخذت منك سمعك وألجمت لسانك وحررت يدك.

-أي نعمة فيها أنت يا من تبث الحياة في الحجر؟ يا عاشقا للصخر الأصم، لم تبدو بعيدا عنه؟ كلاكما أصم ففيمن تبث الحياة يا وادعا وقد قطعت الستة عشر ربيعا ؟هل يستثيرك القيد؟.

فأحببت أن تجربه وأعين من حولك تسقيك جرعة، من كل كأس فتثمل من كؤوس الجزع. وتغمض عينيك على فاطمة وهي تقرؤك السلام وتُسمعك الآيات...

-كم لبثت بين يدي الموت؟ وما يدريك؟ وعلى ماذا أبقى؟ أأدركت بعد جهد جهيد أنك نصف أبكم، ولكنك مطلق اليدين.

-أين أنت يا حوراء لتريني بحريتي اقضم القضبان وأحرر نفسي من نسيج العبودية أم سرقتني سرقت القلب ورحلت؟

وتسوق السماء المطر مدرارا وتخلد وحجرك في البعيد حيث تغيب عن أنظار المارقين وعن أعين الخائفين الوجلين، وتقلبك أبصارهم وهي ترتجف بلسانها..: إنك رجيم..إنك لرجيم...تُنبض الحياة في الحجر؟!.

-عن أي رجيم هؤلاء البكم يتحدثون؟ وهم لا يدرون أنهم أصنام يُستنطَقون!.

والعقل من الحجر ومن الحجر ما يبث منه الماء، دون أن يتغير..دون أن ينسلخ عن أصله متمسكا به بقيت يا حجر، وأنتم تنزعون أنفسكم من جهلكم إلى جهل أكبر!

وبقيت السماء ستارا بيني وبينكم فيا قومي ألا ترون أن في جوف الجبل، الحجر والإزميل لي عبيدا؟!.

وتُبقي على وصلك أيها الطائر، رغم عشقي لغيرك فعن أي عشق تبحث بين كل هذا العراء؟.

ما قبل النهاية...

-الكثير من العشق والذوبان بسكرته لن يمنحنا وقتا طويلا ريثما يصحو النهار من إغماضته، بالكاد نستطيع البقاء معا؛ لا تحزني سنلتقي، هذا مصيرنا أن نلتقي ولن يفرقنا أحد فقط كوني على الموعد عند اكتمال القمر سيذهب عني السحر وسأتحلل من شياطين الجان، سأغتسل بماء الحياة معك، لقد احتبست لك القليل من نور الشمس في زجاجات لرحلتك إلى أعالي جبل الحوريات؛ لا تحزني يا حلوتي سنلتقي وينتهي عندها كل شيء.

شدها إليه وهو يقبل جبينها بحنو ودمعة حارقة احتبسها في مقلتيه، ثم انسحب مسرعا وهو يغيب في الأفق البعيد ولم يبن منه حينذاك سوى جناحيه؛ اقشعر بدنها وهي تقبض على الزجاجة المليئة بالنور إنها مفتاح نجاتهما إكسير الحياة الذي يضمن بقاءها وهي تسير في رحلتها البعيدة وسط الغابة المسكونة بالجن، وسط القبور التي يرتدي ساكنوها أردية الفزع في جوف الأحياء مقابرهم:لقد قضى الكثيرون وماتوا.

انهيارات كثيرة هي التي جعلت منها تحمل فزعا لن تغفر له إن ثبطَّ عزيمتها عن لقاء حبيبها الذي دافع عنها وقد انغرس سهم الساحرة المسحور في قلبه، اختلاف الأزمان لا يعيها في تغير الحقائق، لقد كان أزيد من تلك الندوب المرسومة بصفحة الجبل الذي يطامن السماء الداكنة، لقد تجمد قلب الكون حينها.

تذكُر ذلك اليوم كما لو أنه حدث قبل ساعة أو ساعتين: لم تكن لتخطأ أيا من تفاصيله، سوء ما ليلتها جعلها تنصت لدقات قلبها، لقد عدتها الواحدة تلو الأخرى وجعلتها في عقد لؤلئ،عليها أن تقرر: لقد تاهت هاهنا

وحيدة في مكان قصي عن ماضيها، حلق بها إلى حيث يضمن لها أن تبدأ لوحدها دون أن يتمكن من مساعدتها، هي الوحيدة التي تستطيع إنقاذه وإنقاذ قريتها من براثن تلك الساحرة التي أرادت أن تقبض إليها كل زهرات القرية دون أن تدع طعما أو ريحا أو لونا للشباب ينقصها، ومن يجرؤ على الوقوف أمامها: مصيره واحد، قلب بارد وعينان جامدتان وحزن أبدي...

ذلك المصير الذي ربضت تحت ويلاته البيوت المسكونة بأرواح ساكنيها، ذبلت وشاخت وما استطاعت الصمود أمام سيقان النباتات الشوكية وهي تنهش الجدران والديدان العلقية تخرج من الشقوق، والرطوبة تزكم الأنوف؛ أهل قريتها فارقوا وعيهم بلا رجعة وتاهوا في عالم مجنون آخر بعيدا عن جنون الشياطين، وبقيت هي حبيسة غرفتها في بيتها القرمزي لقد غلقت والدتها فيه الأبواب وكسرت المرايا.

قالت: إن الجنيات يخرجن من المرايا ويسكن في الأجساد البريئة. وأقفلت منذ ذلك الحين كل بصيص يمكن أن يأتيها ذهب أدراج الريح.

- مهما حدث أرجوك يا مجدولين لا تفتحي لأحد. كانت تلك آخر كلماتها؛ لن تفتح لغير الرعب الذي يسكنها ويسكن هذا البيت وعالمها وكل ما حولها من صمت، وزفير الريح يجوب الأمكنة باحثا عن الصغيرة التي بقيت على قيد الحياة تصارع كل ما حولها، لتستقي روح الشباب حبات القمح اليابسة هي من كانت تنير ظلمتها، لقد ضاقت عيناها، لم تعد تشعر بساقيها كل ما فيها بارد، لا شك أنها ستموت حبيسة الجدران؛ ماذا لو انشقت نافذتها ماذا لو تنفست بعضا من النور؟ ماذا لو هربت من أرض إلى أرض ليست تسكنها الساحرات، وقد فزعت منها الجنيات؟.

ودت لو أنها تذوب وتنساب ومياه البحر الأزرق وتبحر كلؤلؤة في محارة لتعلق بصخرة ما عند أحد الجبال أو أن تكون رمادا تحمله الريح إلى حيث يبصر الحياة في أرض جرداء وعثاء...لا يهمها لتتشكل من جديد.

لم يعد هناك المزيد من نور الشمس الحبيس في الزجاجات... لم يعد لديها الكثير من الرمال المنسلة من ساعتها الرملية.

ها قد أزف الوقت...

إما أن تكون أو لا تكون...

خمس سنوات كانت كافية في صيامها، في قيامها في نداءاتها العميقة...

خمس قضتها في سجنها الأبدي وقبرها الإنسي...

لن تطيق الموت وحيدة، خلسة يسرقها الموت: عليها أن تتخذ قرارها لا يسمح للجبناء بالاستمرار، عليهم أن يفروا إلى زواياهم ويربضوا فيها بلا حراك...

الجنون بعينه من يجعلها تصبر على سجنها الأبدي...

-أيكون إلى الأبد؟.

زرقة عينيها تمتد إلى جسدها هي تشعر بقرب أجلها، لكنها ستخرج من سراديبها المظلمة، وما الذي ستفعله في سجنها؟ لن تمنعها الساحرة وشعوذتها من البقاء أسيرة إلى الأبد...

إن كان عليها أن تواجهها فلتفعل ذلك بشجاعة.

عندما عصفت الريح فيما حولها كان عليه أن يحل رباط رحلته في اصطياد الدببة وأن يحج إلى حيث تقبع تلك التي قبعت بزنزانتها سنوات طوال قد لا يكون ملاك الرحمة وقد لا يكون القدر من أوحى إليه بذلك لكنه عرفها وكأنما كان ذلك قبل أزمان تعاقبت عليها أزمان لقد قرأها في ذلك الكهف البعيد الذي تطله قدم بشرية بعد، عندما حاصر ذلك الدب الشرس الذي ولج إلى أعماقها، عندما جأر بصوته المرعب كان قد جهز ناره كي ينام ليلته بسلام، كان النور الساطع من النار ما جعله يبصر تلك الأسطورة المنقوشة على جدران هذا الكهف المرعب، كانت بداية الانهيار الكون والساحرة المشعوذة وهي تأكل قلوب الفتيات، وهاهو بجناحيه توقف عند صورته لقد كان هو من رُسم قبل الآف السنين، وهو يحمل الجميلة السجينة والملائكة بأجنحتها تزفهم وقت اكتمال القمر، كم عليه أن يقتطع

من الليل كي يستقيم أمره؟!، تفكيره المشحون بحمى الأساطير والفزع الذي يراوده، هناك الكثير من البرودة تنتشر في أوصال كل مكان...

شعر بأن مهمته لم تعد في قتل الدببة البرية المتوحشة عليه أن يقف أمام هذا الهجوم البربري حمل فاسه وسهامه وجعلها في حرابه الذي لا يفارقه..عيناه ترسل شزرا وتحديا لتلك القوى الغاضبة التي تقتل سكون الكون حوله...

هو يدرك أن ما حوله لم يكن ليبشر بالخير: إنها نهاية الكون ذلك الكون الذي عاش فيه وترعرع وخط شاربه، كل هذا الكون سيفقده إن هو استكان؛ الوجوه الباردة والقلوب الميتة لم تقدم شيئا غير مزيد من الجمود والقيعان السحيقة من الهزيمة،

لكن تلك الفتاة وذلك الفتى هم من سيعيدوا الحياة من جديد، هذا الذي دار في باله عندما أخذ يثب من صخرة لصخرة وهو يقطع الوديان الواحد تلو الآخر، سيكون الجبل هو مكانهما عندما تتلاقى الأطياف ويكتمل القمر، ستكون حينذاك رقصة الملائكة...

لِمَ يُصيبه الرعب وهو يعلم النهاية؟.

السماء الملبدة بالغيم الأسود، الضباب كستار يلفه يتغشاه موجٌ من فوقه موج وهو يهم الخطى حتى خيل إليه أنه هو من يعد ضربات قلبه دون التماثيل البشرية.كانت زفرة الريح المنسلة من النافذة تعبث بجديلتها الذهبية، كانت تشم رائحتها، لم يعد هناك شك بأن الساحرة قد عرفت مكانها، لقد اشتمت رائحتها، جيفتها، وحان موعد أكلها: فلتفعل ذلك...

كان ذلك ما تفكر فيه، آخر قبس من نور الشمس يروي ظمأها من تلك الزجاجة عليها أن تشرب قليلا منه، وتغتسل بالقليل، عليها أن تستمد القوة لمواجهتها.إن كان لا مناص من الموت فليكن قتالا شجاعا ومواجهة حقيقية؛ تقدمت من النافذة كانت أضعف مما تتصور قد يخون كل جسدها لكنها ستصمد حتى النهاية التي لم تقررها بعد، أخذت تحث المزلاج بما تبقى لديها

من قوة التي لن تهدرها؛ الصدأ الذي اعتراه جعله صعب المراس، مرة تلو المرة حتى تمكنت من سحبه وقد أصدر صوتا عاليا...

جعل بكائها المشبوه أمرا مفزعا ومفروغا منه لم تمهلها زفرة الريح وعصفها بجنون لم تمكنها من إكمال فتحها؛ فقد اخترقت عزلتها واختزلت ساعات من هروبها، لقد ماتت قبل سنوات بالنسبة لتاريخ وجودها لكن الساحرة فقط هي التي لم تشعر بالراحة وانتهاء قلوب الفتيات، اغتصبت الريح ذهولها وأدارت رحاها في دوامتها وكأنها اللاشيء في هيجان الكون إنها آخر فتاة ليكتمل جمال الساحرة الأبدي، آخر قلب نابض بالحياة، لتمتلك مفاتيح الجنون كانت الريح تقذفها وتجذبها ككرة متلاشية وهي لا تقوى على المقاومة.

القليل من رذاذ الشمس هو من كان يمنحها فرصة البقاء طيلة السنوات التي قضتها في قبرها الأرضي، أتسجنها الحياة المسكونة بالجنون؟، قدرها أن تموت هكذا، هذا ما أرادته لا وقت للوم النفس، لتقتلها الساحرة ولينتهي المشهد بأكمله...

وسقطت في عالمها المفقود، والدتها، نور الشمس، المروج الخضراء، القطوف الدانية، لعبها، مرحها، ضحكاتها،جنونها كله هباء في هباء في الفراغ الكوني بلا أنفاس قد غدا، ذكريات موؤودة...

كانت الساحرة أمامها تزفها بضحكاتها المجنونة: طال الانتظار يا عزيزتي..

لكن، جميل أن تهرب الضحية وجميل هو التهامها بلذة، سأنتزع قلبك برقة فلا تحزني. قالتها بكلمات مشحونة بالسخرية والقذارة، وأظافرها كأنياب شرسة لتقتل ما تبقى من هذيانها لمنظرها المجنون فزع يصيب قلبها، رأت صور الساحرات ولكنها لم تكن لترعبها، والأفاعي لم تكن لتقتلها بمنظرها، وهي تبث ألسنتها في وجهها كلها كتلة شؤم بشعة.

عندما انسل أهل القرية كان يرقب المشهد بأكمله سينهي هذه المهزلة، وعليه أن يفعلها بسرعة: أسرع الخطى استل رمحه وصوبه نحوها، لم تكن لتدري أنها ستتمتع بفريستين رغم سطوتها كانت ضالتها أمامها، وذلك

الشاب الأسطوري لن يظهر؛ فزمن الأساطير لن يسمح باثنتين معا، هي أولا وأخيرا، وجاءها الرمح من حيث لا تحتسب، عليها أن تتحرر منه هو تهديد وجودها؛ اقتلعته من ظهرها كما تقتلع شوكة من إصبع قدمها، لكنه لم ييأس هي لا تريده هو، لن يستطيع فعل شيء، هي تريد أن لا يقع حبها في قلبه؛ الحب هو الوحيد الذي يقتلها يميتها وينهي أسطورتها لمئات السنين.

-متى يموت الحب وتعود هي من جديد؟.

لن تنتظر في الجليد كل هذا الوقت؛ هي تريد أن تعيش، كل ما حولها أصبح باردا جامدا لا ينطق بالحياة، وجنودها وجنياتها يجوبون قرية الفزع هذه، هذا ما تريده حقا...

أرادت أن تقتل الفتاة،أن تغرس سهمها في قلبها وينتهي كل شيء وستنهي ذلك الفتى على مهل على نار هادئة...

كانت نهايتها أمامها لا مجال للشك، الساحرة ترسل إليها سهمها شواظ من نار ليستقر في قلبها، لترى النجوم والكواكب وكل ما يدور بالأفق، أغمضت عينيها لتسلم مصيرها...

ذلك الشاب قد غرز سهم الساحرة في قلبه لقد تلقى الموت عنها لكنه الشاب الذي سيتحرر الكون فيه، سحرها لم يقتله بل أنبت إليه جناحين ليطير بهما إلى حيث لا يعرف أحدا، ولا يذكر أحدا لكنه تذكر كل شي.. حتى أدمن تفاصيل الأسطورة، كان عليه أن يحمل تلك الفتاة إلى حيث تلقي الشجرة العملاقة المعمرة ظلالها، وعليها أن تخوض الغابة المخيفة لوحدها عليها أن تنتزع حينها جبنها وتستشعر الحب في القلب من جديد...

البدء بالطريق الجديد هو أول ما عليها القيام به توسلت إلى السماء أن تمنحها القوة لترى من تمكن من إنقاذها لتذرف الدموع الحارقات وتنقذه وأهل قريتها،وولجت إلى الغابة وكأنما إلى نار تلظى...أشباح النهار أشد قسوة وضراوة من أشباح الليل فهم يتمثلون بمن تحبهم؛ أرسلت قدميها للريح لتتعثر، وتنتصب، لتنزلق من فوق الصخور، وتصعد صخور، لتتوثب من غصن إلى آخر، وأيديهم تلاحقها تفتح أفواه مرعبة لالتقامها...

لكنها التهمت الضوضاء بصممها، ضريرة هي عما يدور حولها من بشاعة رغم البرودة التي أخذت منها كل مأخذ والزجاجة فرغت من رذاذ الشمس؛ وهنها يعجل بنهايتها، خطوات قليلة تفصلها عن الأطياف، عن اكتمال القمر، عن القمة التي ينتظرها فيها ذلك العاشق الغائب، عليها أن تشعر بشعور آخر غير شعور الرأفة..غير مشاعر رد الجميل عليها أن تأنس إليه بالمودة وتبث إليه من قلبها شعاعا يغمرهما معا...

أنّى لها أن تفعل ذلك فقد وهنت وتمددت على الصخرة التي تفصلها عن القمة بموضع قدم، لن يستطيع أحد تقديم يد المساعدة لها، ربما تستطيع الملائكة بأجنحتها أن تحمل إليها القليل من رذاذ القمر الذي كان يجمعه من الشمس، القليل فقط يحفونه بها لتسترد وعيها قبل أن تصحو الساحرة من هذيانها.

عندما بدأت تفتح عينيها كانت الساحرة قد وصلت إليها بجيش من الجنيات، خطوة واحدة فقط تمكنها من القضاء على الماضي وبدء بداية رواية السلام؛ لم تستطع الوقوف والساحرة ترمي بشررها، بلظاها، لم تستطع الزحف كل ما فيها يئن لكنها تبصره، نور عينيه، قوته سهم عبر قلبها، حطم زجاجه إلى شظايا، ردتها إلى وعيها، حينها استجمعت قواها لم تنظر للخلف عليها أن تسير إلى الأمام وأن تعتلي القمة بخطوة واحدة...

الهنيهات القليلة هي من تحدد مصيرنا نترقبها بفزع وبكثير من الأمل مغموسا بالقلق...

عندما وصلت ارتمت إليه؛ قبلها ودسها إلى قلبه وحبه المختمر بين ضلوعه وكان اكتمال القمر نهاية لأسطورة الساحرة التي ذابت أمام نوره، والملائكة رقصت رقصتها وهي تلفهما بأجنحتها البيضاء...

الرقدة الأخيرة

حبات المطر تتراقص على أنغام الخوف والأنين يبتلعه ستار الليل، والصمت يتبعه وحشة باحثة عن نور، والنوافذ مشرعة والستائر متأرجحة في برد الطريق، لتستر الجسد المارق في طريق الخوف، توصد النافذة وتغدو ذبالة النور متأرجحة حتى تنوس ثم ما تلبث أن تنطفئ، فتغيب عن الأقدام التي تقصف جموح المخاوف، والنداءات الذائبة مع حبات المطر المنهمر تنزلق إلى حيث تسير المياه، وتستقر في المستنقعات الراكدة التي لم تكن أحلام عبد الستار تسكن في إحداها رغم كثرة جلوسه إلى الطاولة الخشبية المائلة إلى السواد وقد تغلغلت العفونة إلى جسدها، وقبالته منفضة من قطعة صفيح كانت يوما تحوي في أحشائها سمكة رديئة قد وصلت من المرافئ البعيدة خلف الجبال تلقى إليهم بالأكوام، لم تكن لتصيبهم آلام البطن ونادرا ما كانت حالات الإسهال والمغص المعوي تدفع بأحدهم إلى المشفى الحكومي الخرب، الخلاء كفيل بعلاج ما في البطون...

فالبشر والحيوان مشتركون بالروث يشبعون به أرضا واسعة من السواد...

الخلاء حيث تسكن الأجواء أشباح الموتى...

لم يكن يدري أي منهم أنهم مجرد حثالة تسكب إليهم مقادير من الأغذية التالفة دون منحهم دواء قد يشفيهم؟.

فالموت حساء يستلذ به الكثيرون...

غير لذته التي يسعى في أن يتحرر منها، الخطيئة التي لم يتمن في يوم من الأيام أن تعرفها فريدة، فكانت الأفاعي الهاربة من سيجارته والرماد المتبقي منها هو ما يفر إليه... إدمانه عليها يقوده إلى عالم من النسيان، من التوبة المطلقة. رغم الذكريات الجميلة مع المغنية المسكونة بمرض الشهرة، والمجنونة بمشاعرها الفياضة التي تنقض عليه دون أن تترك له أية مواربة للأبواب، بل بالمزاليج تغلقها، وهو لم ينوِ الفرار فلم يكن بمقدوره تحت أي ظرف أن يحصل على كل ما يريد بدعوة من امرأة ذات شهرة ومال، لمواصفاته التي لم تعجب أحدا غير فريدة حبه المقدس وهذه الحب العابر، امرأة شمطاء قد فارقتها لذة الشباب، ومرَّ على جسدها الكثير من الأجساد العفنة من أجله هو... ولكن سكرة الموت التي كانت تعانيها و تلك المناديل الممتلئة بالدماء هي من كانت تجعله يؤمها بالأدوية والطعام والجسد، معاقرته للخمر أتلف كبده وسرى كالزرنيخ في جسده رغم إحساسه بالمسؤولية تجاهها وعدم خوفه من انتقال عدوى السل إليه، فقد فقد أمه في الطاعون وأباه بمرض لا يعلمه، وهاهي تقضي أمامه...

أي مشاعر هذه التي تمنحه إياها السماء بالمجان؟.

لم يدر أي منها يمكن أن يحنطها على وجهه فلا يرجو لها تغيرا حين دست في يده مفتاح لخزنتها وأمرته بلسانها الثقيل بأن يأخذ ما فيها، فهو الوحيد الذي أخلص لها في هيئتها الكئيبة...

عندما اقترب من الصندوق لم تكن لقدميه أي أوتار ليشعر بها والرعشة كست جسده النحيل بأكمله، كان بين أزمة القبول والرفض، صراع بين الكرامة والمهانة، رغم فقره فهو يملك جسده وقوته ليتم إعالة عائلته وفريدة...

وعندما حمل الصندوق مع آخر إغماضة لها وهو قابض على يدها، مضى تحت ستر الظلام، حَفرُه في الفناء الخلفي لا يرجع الصدى، صوت الفأس المكتوم بين نباح الكلاب الشاردة وسكارى الحانات، في سكرتهم يطوفون في بهيم الليل، وأرواحهم الضالة بين الأزقة والبيوت المتلاصقة...

-لِمَ لم يشعر بالخوف؟!.

-لِمَ لم تقطر له قطرة من الملح البارد؟...

الصقيع الذي يمارس طقوسه من غير تأنيب للضمير منحه الكثير بسخاء، من سيدة هجرها الكثيرون واحتضنها وجسده رغم مرضها وتعاستها ونهايتها المرتقبة، وموتها البطيء...

لكنه جار للقدر الذي يؤتمن وقد انقض على ما تبقى له من حلو الحياة بعد أن منّ عليه بالكثير من مرها، القليل من الحزن لا يكفيه حين سقطت فريدة بذلك الجسد الذي ضمر تغطيه حراشف لتغدو كصدفة سلحفاة هرمة...

ما كان يدور في خلده آنذاك: أن غضب السماء هو الذي منحه الشقاء بسخاء، كما منحه الثروة برخاء.

لم يكن بمقدوره أن يعترف بذنبه ليشتري أيّا من صكوك الغفران فقد كان بريئا مما صنعته يداه، وإن حدث أن شهدت عليه فلن يوافقها بل سيكذبها على وجه التأكيد.

وليترك أمر ذلك المال للزمن، ليكن بعد موته وانتهاء أجله الذي طال أمده؛ فقد كان يحسب كم من الوقت عليه أن ينتظر قبل أن يفنى جسده؟!.

صيحة واحدة كانت كفيلة بأن تجعله متسمرا في مكانه بلا حراك وهو يلف السجائر بيدين مرتعشتين...بجنون ما تبقى في خلده من ذكريات عقيمة رغم ولادتها لكلمات الحب والعشق والجنون و صيبها يضرم النيران في نفسه، ويجري السحاب بهذيان، وسهامه تقطع الأبصار وهي تذرع باحثة عن تقاسيم كتلك التي كانت يوما بين الأحضان...

كما أصابه العشق يوما أصابه الهلع، كلاهما لا يستقيمان مع سكينة النفس وتسابيحها...

ما أصابه باقتراب شبح الموت لم يكن بالحسبان...

عندما سقط النور على وجهه كان يبدو إنسيا كأولئك الذين يرقدون أمام المقاصل، الحقيقة التي لا يمكنه تصديقها: أن الموت يمشي منتحلا صورا لمرعبين يبثون الهلع في النفوس فتموت من وجلها ورجفتها، أن ينتحل صورة أي كان.

-أليس هو من ينزع الأرواح من أعناق الزجاجات، ويقبضها إليه دون حول من المجني عليه ولا قوة؟.

فهو يستطيع أن ينتحل صورة أي كان قد أعجبه.

أسقط أسئلة زادت من تشنجه.

غريب من خارج المدينة غامر بسفاهة ليرديه قتيلا.

- ما الذي يريده؟ ما عساه يطلب فأرخص ما في البيت العتيق عبد الستار نفسه. عندما سحب الغريب كرسيه ووضع قبعته على الطاولة، بقيت عيناه مسمرتين عليه. لم يستطع إغماضهما وكأنه يحدد الهيئة التي يريد أن يقبض فيها إلى الرب، كانوا يقولون:

"مرتكب المعصية يأتي بمعصيته، وزير النساء يقبض والمومس تزدحم على جسديهما أجساد بالية."

-على أي هيئة سيقبض؟.

ربما هيئة الفقير التائب هي ما يسعى لأن تكون صورته الأخيرة...

الكلمات الطيبة التي أرسلها الغريب إليه لا تبشره بفرصة أخرى لتقرير المصير، دون أن تكون لصبغته الصفراء أثرها في تلك الكلمات التي سقطت قبل أن تصل إلى أذنيه المتدلية وقد خرج منها سائل أصفر يميل للحمرة...

ولكنه عندما وصل إلى لبِّ حديثه تقطعت به الأنفاس: تستطيع مساعدتنا...

كانت بمثابة كلمة السر التي يمكن للساحر أن يتلوها لتنويم من يريد: أهو مرض الوهم؟.

-هل هو نوع آخر يمدهم بنوم أبدي خشية أن تصدمهم الحقيقة؟ ذابت الكلمات في موجة من التشاؤم.

إنهم خرقى بما فيه الكفاية ليتوقفوا عن المضي قدما في هذه الحياة الرديئة...

عندما ارتد إليه رمشه بعد فترة طويلة من التصوير البطيء، كان الشاب قد طلب إليه دعمه في أن يتخذ بيته ملجأ للثورة على العمدة وظلمه...

ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة القبول أو الرفض فهو ليس الساكن الوحيد في هذا البيت فروح فريدة تزاحمه في كل أمر من أمور بقاءه...

قدرته على فعل ذلك والصمود في وجه الأعاصير الغاضبة والمطالبات المستمرة التي ستؤمها الأفواه البلهاء في تقيده إلى لوح من الصفيح الملتهب انتظارا للموت، ضرب من المستحيل، فليس من المعقول أن يترك هذا الذي يزف إليه نبوءته بميتته البشعة مبكرا بيوت الجيران الملاصقة لبيته كلها ليطلب منه منحه بيته البائس...

لولا تلك الفسحة التي تميزه عن ذلك الخراب وأكوام الأوساخ وتلك الشجرة الخضراء العتيقة، التي لم تكن وحيدة على طول الزقاق الطويل بل كانت الوحيدة في المدينة كلها التي بدت مظلة من بين الغيم القرمزي على قبور مرصوفة فيها أشباه بشرية...

في الصيف البارد لا تذوب القيعان الجليدية بل تصبح أكثر هشاشة، والعمل البطولي قابل للكسر وشظاياه لن تؤذيه وحده بل ستقضي على مستقبل لعائلة بالكاد تحبو على أبواب القدر.

يمكنه أن يفعل أي شيء إلا أن يكون بيته لغرباء في المدينة..كل من في المدينة غرباء بالنسبة إليه حتى جيرانه أيضا لهم برودة الغرباء...

قد يكون ما يسأله إياه الغريب عملا بطوليا وقد يمنحه وسام شرف يرسله لفريدة بعد أن قضت بميتة لم تكن بين يديه وحسب، ولم تملأ كلمات الوداع أذنيه بل كان يقضي أيام يتمه فيها وهي تحترق أمامه دون أن

يعرف لذلك سببا، دون أن يستحضر له أطباء زمانه من التعساء دواء يحميها من الموت، ظنهم أن لكلماتهم الضئيلة أثرا في مواساته:...البقاء للرب.

-أغضبا من السماء كان؟.

-أم لعنة الصندوق؟.

-أم هي سنة الحياة التي تلزمنا بفقدان من نحب؟.

قد يحمل نبأ تعذيبه بنفسه إليها إن لم يسرقه تجار القبور...

لكن كل هذا لن يضيف إليه شيئا بعد أعوام لا يعلم بعددها وقد يكون قد مات وشبع موتا، لن ينتظر وساما سيحرم منه لا محالة فالبؤساء لا يمنحون أوسمة البطولة بل يحملون سياط الضرائب وأوجاع الأفواه الجائعة...

سيهجر كل ما في المدينة الرمادية جدرانها وينتحب إلى جانب فريدة وقبرها الزجاجي، مخلِّيا الصقيع الساكن في صمتها الذي لم تمنحه غيره طيلة عشرين عاما من الرحمة بينهما والصبر على البؤس والشقاء، ذاهلة عن الجوع والفقر الذي تشهده المدينة بأكملها.

مضت الساعات قاسية وئيدة الخطوات عليه وهو يتلو آيات الرعب التي كان يستذكرها في تلك الأيام الماضية حين كان في السابعة، وهو يتقافز على ظهر أبيه في الطريق الطويل عندما اعترضهما قاطع الطريق الذي تنتصب على حافتيه أشجار قد تشابكت أغصانها، لم يكن ليصل إليه كما لم يصل إلى فريدة إنس ولا جان، كانت الأيام التي زحفت بمآتمها أشبه بقرون حبلى بالهموم...

وأخيلة العابثين في تاريخه تحضره أسمالهم البالية، كما هي أسماله التي لم تعد تقيه شراسة البرد والصقيع المزمن في مفاصله...

ولم تعد سجائر المغنية فيما مضى ولا تلك التي يأتيه بها الطريق القذر تفيده في النسيان...

ذلك المارق على حافة الطريق الذي رغب في سلب مالهم وإرغامهم على منحه ما يريد، قدر له أن يقضي حياته تحت التراب، تلك الحركة السريعة من أبيه وقبضة الحداد أردته قتيلا، جأر وسقط في ثوان، كومة الحثالة التي ترصد المشهد مضت من غير رجعة...

ذكرى القتيل لم تفارق ناظريه طيلة حياته كتعويذة من التعلق بمفاتن الدنيا، وعبد الستار والدنيا لا يتفقان، كلاهما لا يبتغي منح السعادة للآخر...

وها هو اليوم يجلس قبالة من كان الموت بعينه قبل ثوان، بشحمه ولحمه وهو يخط بنسيج الدخان العابر إلى ما فوق منخريه طريقا إلى حيث لن يعود، قبل أن يرى فريدة يوما، أبراج الأماني أشبه بالمستحيل والغمامة فوق الأفق تقعد جنبا إلى جنب وإياه...

تصب عينك في الغيب أيها الغريب وموجة من قهقهة الدهر تزفك...

عن أي معادلة تبحث؟...

معادلة البحث عن السعادة الغائمة منقوصة لا يمكن أن تصيب صيبا نافعا، وأنّى له أن يذَوِب تماثيل الشمع الصامتة فيها...

فكل ما فيه من دماء قد جف، كل ذكرى لها قد تكسرت...

كما الدوس على زجاج هش...

فقدانه إياها كان سخاء آخر في قاموس حياته الذي يعج بالمآسي؛ لم يعد له وجود النطق بالسعادة وعبد الستار مهادن مع الوجه القابض على جذوة اليأس فيه...

خيالات الأم والطاعون الأسود ودراجته ذات العجلة الواحدة،المطرقة الحديدية والنيران، ومحطة القطار، فريدة والمغنية، حذاءه ذو النعل الحديدية، مساندته للثوار، آماله بغد أفضل كلها تمر بشريط ملتف قد أثلمت جنباته واستحالت ذكرى مشوهة...

-لم يدر أهو أسقطها أم أسقطتها كلمات الموت المجاور له على الطاولة الخشبية؟.

- نريد أن تساندنا.

-كيف لملك الموت أن يهبط إليه دون أناس مدينته البائسة؟.

أسئلته تدور في محور مخاوفه.

-أن يلتمس الضعيف من الأضعف المساعدة أمر مليء بالهزيمة.

-لِمَ عساه أن يساعد ملك الموت؟ أي مقومات تجمعهما؟.

لم يستطع بلع ريقه لينطق بالحروف؛ عقد قد التفت حول لسانه، و في منتصف البلعوم سكين يجترحه نصله، لا لفظ لها يستطيع ولا قدرة له على بلعها...

خارت قواه التي لم يدر إن كان يستطيع أن ينظم جوقتها من جديد بعد أعوام الحزن المتتالية فوق رأسه...

منطق العاجز عن فهم ما يدور حوله، هو الذي يجعله عالقا في عنق زجاجته التي لا تبارح يده المرتعشة ليلا أو نهار.

لكنه كان يملك هواية العجلات التي كانت ذات أهمية له يوما ما في تلك البلاد التي تقع في هضبة الأناضول...

والتي لم يعرف بعد سببا واضحا لتلك الهجرة القسريّة لوالده وهو يحمله تارة في الطرق الوعرة وبين الغابات بعيدا عن وحوش البرية من الحيوانات المفترسة والآدميين...

وتارة أخرى يطلق رجليه للريح متبوعا بزفرات الخوف الذي سكنت جسده الغض دون أن يختارها...

لقد كان لبيتهم قرميد أحمر تميزه من بين الأعشاش المتناثرة طيلة الطريق، وتلك العجلة ذات اللون الأسود القاتم ملقاة أمام الباب حيث كان يلهو، وفي الطريق المعبد الذي تحفه الخضرة أفواج من الدجاجات مختلفة

الألوان وديكها ذو العرف الأحمر يحوم في المكان، حيث كانت أمه تخبز في فرن القرية الخبز والكعك المحلى حتى هبت الريح وأخمدت ناره، فلم تقم له قائمة بعد ذلك...

الطاعون الذي اجتاح الهضبة وقضى على الدجاجات ومعظم سكان مدينتهم؛ فلما رأى والده ذلك أطفأ الكير وأهمل الحديد والعدة والعتاد ومضى يحمله على قدمين تقصفان من الخوف...

مشهد زوجته كفحمة سوداء لا تجعله يحمل غير ذكراها ودموعه وتلك النطف من الآهات الحزينة بين ذراعيه...

مضى بين قيعان سحيقة لن يصل في الوقت المناسب ولن يفلح بسياسة غلق الأبواب ولن يعيد إليه حزنه تمثال فريدة ولو شمعيا كان ما عليه سوى أن يبحر ويبحر في غيم أسود لا يبين منه غير أنه كان يوما عابرا لبيتهم العتيق.

المرجان

حلم المرجان أن يتنفس مثل البشر ولكن عندما قطعوه من قاع المحيط مات قبل أن يصل إلى الشاطئ وبقيت آماله ذات يوم، أن يصيخ السمع لمترف من هنا أو هناك وقد ذبلت الجنان، إذ فارقها وقد ذبلت الجنان بعد أن فارقها وهو ذاته قد ذبل بفراقها...

ما أبأسنا حين فكرنا أن الفراق هو الحل، الحل لكل مصائبنا دون أن نعيّ أن القيود التي نفرضها على مستقبلنا هي اجترار لما مر معنا في الماضي أيّا كان، وبأي صورة كان تبقى صوره ماثلة أمامنا بالقريب أو البعيد، وهي جزء لا يفارق أعتى الذكريات المتصلبة التي ترثي لذكرانا وحين تعصف الريح تعصف بأمر لنا أم علينا.. لا يمكن أن نحيط علما بكل أمر، هذه الأمور التي يعلمها الشيخ عبد الصمد حين مدَّ بصره إلى البعيد وقد صاد بشباكه حاجة أناس قريته وما يحيطها، تكاد أعينهم تنطق بوجعهم، المشاعر الحارقة التي يجيش بها صدره لم يعرفها من قبل، أشياء تُعمل في صدره لم يألفها من قبل...

هو لا يدري حقا من أين جاء؟ لحيته المخضبة بالحناء ملابسه الغريبة التي تثير فضوله، حتى لقبه بالشيخ ليسبق اسمه عبد الصمد، وعبد الصمد نفسه اسمه لم يعتده من قبل، وذاك الصدى الذي يسوقه إلى الجنون، من جلجول هذا الذي يخيط برأسه عصيانه؟.

هو ينكره وجميع من رآه أو سمع باسمه يتعوذ منه، فلِمَ يؤثر به كثيرا؟، كل ما عرفه أن جلجول شاب عصي على النسيان، وهو قاطع طريق اشتهر من قدرته على حمل السيف واللعب به كأنما يجلجل به من حوله، من

براعته كان اسمه، كل أمره إذ أنه قاطع طريق و يسلب المارقين فيحرمهم من قوتهم وقوت عيالهم،وهو الذي يسرق الرجال من أحضان نسائهم وهو أشهر من سرق البوم من عشه، إنه السارق وقاطع الطريق؛ فمن هو؟ لِمَ يكترث بأمره؟ لِمَ أصبح هاجسه؟.

كلما أفاق وكلما مشى الليل فوق جسده وحطمه سوار التفكير، يتراءى له عند كل سكنة ونأمة، أيكون؟ ربما، ألقى بالأسئلة إلى تلك المنحدرات، وظل يتأمل القرص الذهبي وهو ينبش التراب، فلم أصبح شيخا؟، لِمَ تم تقديسه ورضي؟ لِمَ؟، أتراها أعجبته هذه اللعبة وراقت له؟، كما راقت له الأعيب النساء من حوله كالفراش المبثوث، غدون يهوين إلى ناره، رضاك رضاك يا شيخ عبد الصمد...

لم يفق ذاك اليوم إلا وهو كذلك؟، تراه أي يوم كان؟، أغلق عينيه وراح يتصفح دفاتر ذاكرته، كم من السنين قد مضى، لقد كان عدد سنين إن قلت أو زادت فهي تجعله يستيقظ على كابوس قد كان، نعم إنه هو عليه أن يعترف بالحقيقة المرَّة أم المفرحة، أجنون ما هو فيه أم أمنية؟.

وتلك العجوز الشمطاء التي اختارته لتصف له مستقبلا أنكره...

كانت تمتمت بكلام غير مفهوم: أن الخشبة المنصوبة في الشمس إذا أملتها قليلا زاد ظلها وإن تجاوزت الحدَّ في إمالتها نقص الظل...

- عن أي ظل تهذي هذه الشمطاء...؟.

-ثورة الغضب وثورة الحمية ولذة القوة، لم تعد مطلوبة بعد اليوم...

صمت رغما عن نفسه، وهي تتابع بوقار لم يشهده من قبل.

- يا ولدي إن كل إنسان قد رُكب فيه جزء من سوء الطبيعة، ولن يقدر العاقل على دفعه إلا بالمجاهدة، غضب العقلاء مستور وغضب الجهال مشهور، وليس للعنف شمل ولا أُلفة ومن فرج بين قدره لم يرجع إلا إلى دونه...

-لِمَ عليه أن يصدقها وأن يتبعها ككلام حكماء وهي مجرد عجوز شمطاء؟!. بعد أن كان مرهوبا غدا اليوم محبوبا، بعد أن كان يستعاذ منه غدا...

آهة عميقة يصدرها من أعماقه، آهة ألم تصدر من أعماقه.

- تراها لِمَ كانت؟.

يرفع يده ليتحسس أسفل رأسه، لقد آلمه شيء ما، ندبة ما أسفل رأسه اتخذت مكانا بشكل ورم صغير بشكل طولي عريض بسينتمتر واحد طولا وعرضا، لا يكاد يخطو خطوة في تفكيره إلا ويعيده قصرا لذلك الماضي الذي يتأرجح فيه على جناح غيمة، ما تلبث أن تسقطه مع وقع أمطار كانونية تسير في التعاريج المنزلقة بين الجبال وتحفها الوديان ليبتلعها البرق ويهوي بها الرعد وهكذا تترى تتشكل الصورة ويسردها البحر قصصا لساكنيه...

- بأي صورة سيكون؟ وإن خُيّر فما الذي سيكونه؟، ربما لن يختار أي منهما مهما كان تلك الجدلية التي لا تروقه، والتي يحاول جاهدا بعثرتها بين الحجارة السوداء المرصوفة فوق الجبال كالدمامل.. وهو يعتليه في كهف قد أنشأته الطبيعة لرجل اختار حياة الوحدة والرهبنة والتعفف.

- كم يتمنى ألا يستيقظ من المنام الطويل الذي يعصف بكيانه!.

- كم يتمنى أن يسقط من ذاكرته اسم الشيطنة، واسم القاطع للطرقات وإن كانت وهمية؟!.

يريد أن يكون محبا محبوبا، دون أن يكون وجعا موجعا، لكنه لا يريد أن يفقد ماضيه أم تراه يريد؟.

الفرق بين أن تحب وأن تكره هو فينا نحن دون أن تكون للغيب اليد الطولى فيه، ليست الظروف من تصنع عواطفنا قد تضعنا على مفترق الطرق، ولكنها تمنحنا حق الاختيار وتمنحنا حق البقاء والصمود، المشاعر الإنسانية ليست واجهات يتم تغيرها أو التخلص منها كما يتخلى المرء عن أي شيء لا يقدره و لا يحفل به، إنها جزء لا يتجزأ منه جزء مفطور عليه غير

قادر على اجتثاثه، وهو كذلك قادر على أن يحتال على الماضي ويبعده عن تفكيره بتغير اسمه...

هو الآن الشيخ عبد الصمد، الذي يمسح على رؤوس اليتامى ويجعلهم يلتمسون طريقهم في الحياة بأيديهم، هو الذي يمنحهم القدرة بأن يكونوا جزءا من مستقبلهم لا فضلة من الماضي، تلك القطع من الأراضي الواسعة التي بسطت ككف حناء أسفل الجبل الدميم، بكسوة سوداء خصبة زرعها أولئك الذين وثقوا به ورأوا الحياة من صلواته وابتهالاته، جميعهم يعمل ظهورهم مشكوكة بالعمل في الأرض وترويضها وزراعتها بما طاب، الكثير من التغيير أحدثه عندما حل مالكا لقلوب هؤلاء الطيبين على هذه القرى الممتدة على مدى البصر، كان الفضل يعود لأستاذه الشيخ عبد الصمد الذي تبرك باسمه هو الذي أنقذه من الذئاب حين اشتمت رائحة الدماء المنبعثة من جبينه وأحاطته وقد كسرت ساقه وحيدا في غابة الشطار التي خلت منهم، لقد تركوه وخلوه وحيدا بعد أن تعثروا وضاع منهم الحظ.

عندما ولَّت القافلة في طريقها، لقد هربت بما فيها؛ أي سحر كان؟ وأي رهبة كانت؟ هو لا يعلم أين كانت تلك العينان من قبل؟!.

إنها عيون الملائكة وهبة النور والشال الحريري يلف الشعر الأسود الفاحم كما هو الليل ودهيمه...

- ألوعه الحب ما كانت كلوثة من الجنون بفعل سحر ما؟، هل انهاروا بعدما رأوها؟، ما تراه الذي أصابهم؟.

هو لا يدري حتى هذه اللحظة التي يمرر فيها سراج السراب وميضه أمامه، فما يلبث أن يمحى فلا يلتقط منه شيء، لقد كانت الحجارة تنهال عليهم من كل صوب، صرخاتهم ما جعلت البوم ووحش الليل يفيق، ورائحة الدماء المنسكبة وطوالع الفشل التي لفتهم بستارها المظلم، وهو الذي بقي مكسوا بدمائه وهو يناظرها وقد أذابت جبالا من جليد، ونفخت فيه روحا لم تكن، يوما بين جنباته ولامست مشاعر عميقة أذابته صهرته، جعلته

يتحرق شوقا لا ألما لا فزعا، وهو يرقب الركب ينسل بعيدا تلفه الأشجار والغيم ونورها مازال يهبه الأمل في أن يراها يوما...

-كم من الساعات تألم؟، لم يحصه عددا من ذلك الدُّوار الذي دار في رأسه، وكما أحصته الذئاب وهي تعوي وتبشر بحفل قريب؛ عن أي شيء سيبحث وقد فارقته إلا من وجهها وذكراها، سيبحث وسيتغير، سيهب العطايا وسيُحيي النور في قلبه من جديد...

وكل من يبحث عنه قد ولاه دبره ومضى متعثرا بين الجبال والتلال والغابات والمغاور والليل الدهيم والخوف ومدادا مدادا من شؤم الطالع، بنات الليل هن رفيقاته والمؤنسات وهن مقلبات الجسد من جنب إلى جنب، والأنين يشدو كطائر مغرد، والصبر تقتلعه الساعات وجحيم النهاية مقترب، تلك العيون المتوهجة والأجساد الرمادية وكومة الفراء والزلال واللعاب هي هبته من جنون لا يفارقه. لكنه سيصبر كما أذنت له العجوز الشمطاء بأن يكون ويكون هبة شيخه وسميه عبد الصمد في لوحة اليوم والأمس.

ربما يوما ما..

أدرك أنك ستقول عني بلهاء وتمضي بصفحاتك سراعا كيلا أبصرها، وأتذوق رائحة الذكريات التي مررنا بها معا، كدت تلتقمني كما حشوت في بطنك أسماك لها زعانف وخياشيم، لكني يا صديقي بدوت سمكة بلا أي منهما، من الحمق تصديق وعودك لي بأني آمنة في مملكة أنت حاكمها...

-عن أي حكم أسأل وعن أي مملكة؟، وقد خرجت حافية القدمين أدوس رمالك الذهبية محترقة دون عويل، دون أن تنبس من شفتيّ ضحكة فاترة، أراقص وجعي أمامك وأنت بلا مبالاة تقلب ما بين السطور، ثم بعد المرور فوق الظلال تدعوني لأراقصك على موسيقى قد كتبتها من صرخات النائمين في أعماقك، بعيدا عن صورهم المعلقة في قالب الخوف في داخلي، كي أرقص وإياك وأنا محترقة بك، وأنت قدري يا عزيزي، أن أجالسك زمنا طويلا وأستجدي من مدادك محابر وأوراق كي أدون عليها ما كان بيننا، ولكنك متمرد كما أنت دوما، تسطو على محابري وتفيض بمائك على أوراقي فتذهل الكلمات وتذوب لتعود صفحاتي كما أودعتني إياها. بيضاء بلا سطور وكلمات.

- يا وجدي الهارب ويا تلقيمة صبري ويا نازعا من نوازع الروح فيّ أما آن الأوان لأن نمضي معا متشابكة أيدينا، تسوق لي حاشيتك وأنحني لجلال قدرك؟!.

- أمازلت لا تطيق النظر إليّ؟ لِمَ؟ ما عساني أفعل كي لا تسدل ستارة صمتك المتلاصقة مع زرقة السماء فلا يبين ماؤك من سماءك؟ وأنا محتارة لأي منهما أشتكي وعلى مدى الأفق تثيران زرقة رائقة قبل كل مساء.

-أيا بحر أصدُقني، ألون ما في أحشائك من أضفى حمرة لخديك وافترشته مراكب طالبي أمنك حين رفلت الشمس بثوب مصفر تتغشاه حمرة؛ لا تقفل الأبواب بمزاليج وأنصت لحكايتي، ليست بهذا السوء الذي يصوره الباقون ويسردونه، إنها قصة التقائي مع نفسي، لم أعرف حقا كيف بدأ كل شيء! كل منا كان في طريقه، كنت حينها قد أتممت بناء جبل من عشر مجلدات بين ذراعي، ربما تظنني أبالغ، بهذا الجسد النحيل أستطيع حمل ما أريد، لست ضعيفة كما تلمح بنظرتك هذه، فالمرأة يا عزيزي تستطيع أن تحمل بين أضلعها إنسانا آخر وهذا ما لا يستطيعه أحد أرأيت كيف أتفوق عليك؟ لم أكن أبصر طريقي في المكتبة العامة، لكني أحفظها عن ظهر قلب لذا لم أكن لأخطئ إلا في ذلك اليوم لقد تعثرت ..أتصدق؟ لقد تعثرت به، كلانا كان يختفي وراء جبل من مجلدات، لقد سقطت وسقط وسقطت المجلدات مهزومة أمامنا، لم أكن أعلم أن هناك دوار آخر يصيب اللسان فيتلعثم فلا يحسن الكلام، كلانا قد أفاق على ضحكات مكتومة من الجالسين فوق المقاعد الخشبية، ظنهم أن القلب خشبي أو مصنوع من صلصال كما كنت أظنه، لكنه بدا لي ككتلة مليئة بالدقات التي تنزف في الجوف البارد فتحيله حلوا رائقا؛ جمعت التروس وهرولت مبتعدة وهو يرمقني وأنا أكاد أختفي في الجدران، لِمَ تراني فعلت ذلك؟، لا أدري، لكني لم أكن أعلم بعد، أهو الحب من أول نظرة أم تراه إعجاب عابر؟، يا لي من حمقاء، من هذا الذي أعشقه من أول نظرة ولم ترتعش يداي لأحد من قبل؟، لقد أعلنت رهبانيتي من قبل، منطق الحب مرفوض في مجتمعات عانت من شقوة الحياة، لم يكن العشق مباحا إلا بين ابن العم وابنة عمه، منذ الطفولة تبدأ التسميات وقد تقرأ الفاتحة وتعقد الأفراح، أن فلانا لفلانة وأن فلانة لفلان، ولن يكون قدر آخر لأي منهما، ومن العيب أن يأتي غريب إلى القرى الإسمنتية قائلا أنه يحبها، فكيف تريدني يا بحر في هذه المتاهة أن أستفيق على ملكوت اسمه المحبة وأمضي سائرة وإياه، قد يمضي السيف في رقبتي أو تصيبني أعيرة ليست بالطائشة

وأبقى أمد عنقي لأشتم طعم التغيير، قبل أن يقال: قد خانت العهد، عن أي عهد يتحدثون؟، أهو عهدهم بالعبودية؟.

- هب أن روحينا توافقتا وسبحنا في الكون معا في قارب نجاة، وطرق الباب يوما وطلب يدي للزواج؟، سيقولون: علاقة مشبوهة، ويقولون: غرر بها وهاهو يدبر مكيدة ما...

الأقاويل كثيرة التي تقال وهي التي كانت.

لقد بحث عني كثيرا وظل يرقب مجيئي إلى المكتبة العامة، لقد غبت حينها ثلاثة أشهر أنهيت فيها المراجع وكتابة بحث عن حرية المرأة قد تجاوز المائة صفحة، ولكن يا لبؤسي فحريتها لا تتعدى ما بين الوسطى والسبابة.. بلهفة قالها عندما رآني بين رفوف الكتب: أخيرا قد عثرت عليك...

-ما أجمل أن يبحث عنك أحدهم ويريدك بصدق، لم يكن يريد غير خطبتي، وهنا الطامة الكبرى: لقد هرب من إخوة حملوا البنادق ليطلقوا الرصاص، ليس لإقامة الأفراح بل لإقامة الأتراح، يريدون أن أزف لابن عمي بدلا من الغريب، الكثير من الصمت لن يفلح في التغيير والهرب هو اللغة التي يفهمونها، أنا لم أكن يوما أمة ولن أكون...

-أرأيت يا بحر كم ظلمتني بشرودك عني؟.

دعني أمر من خلالك لعالمك الآخر؛ ربما يكون أكثر رحابة من الذي أعيش فيه ربما يكون كذلك مع من أحب...

صاحبة الجلالة

يا صاحبة النفوذ أما تريثت ريثما يدنو العمر مني هنيهات لألقاك! وددت لو أني أبقيتك بقربي خمسا من الثواني، لأنبش وإياك أرض النفاق وأزرعها بذورا من حناياك، وددت لو أني دفنت بقربك كل أوراقي والدواة وكل أسمائي وأطيافي وارتقبت ساعة خلوتك وتلمست الطريق بعدك حافية القدمين، وددت يا وداد القلب ومهجته لو أني أمضيت حينا من الزمن أسمعك لحن الكلام وأمارس شذوذي في نطق الكلمات، وأنشدنا حين كان السمر منتشيا ووشاح القمر يدسنا بأستاره ليلا طويلا ما درينا ما فيه من الساعات، وأعذر من كان يوما عاشقا يتبع الشعرى وسهيل بالخلجات...

-كم طربنا معا لطنوب العمر نقاسيها بالصبر والصلاة، كم يا قلبا حسيرا مضى من جميل العمر وإياها؟، كم من السنين سيمضي بلاك؟، والرحيل يا عين دونك فلا ترتجي ممن فاتك أن يلقاك، فارقت الصحب أواه أمي وتركت المخدع والخزامى والخمائل فمن ينساك؟، وطوفت البيت هاجرة حلوه وأسكنت المر في محياه، بعدما رقصنا وثملنا معا، واصطفينا زهو العمر وقلبنا ظره وسلوىً كانت بيننا أنه يوما ستكون الدنيا فداك، وأنت ملحي والأدام فلما فارقتني بتروس وسيف منكسر؟،عن أي نور أبحث لأشتريه وقد غاب فيضك من أمامي؟.

تلكم الخمس يا حلوتي مضت سراعا ومحت ما عبثنا به على رمل الطريق وما بنيناه من أكواخ أحلامنا تحت صنابير الشقاء، وأغدقنا على نفسينا بقلائد الأمل والصبر الصفراء والحمراء، كم مضى لأبعثره وأمزقه كما أمزق زوارقي الورقية؟ ودونك أتحلل من وعثاء سفري وأنت جسدا

خاويا نصب عيني لا أقوى على تقبيلك، ودموع عيني تغسلك وغُسلك الملائكة يا عمري المسروق؛ لِمَ تراني حرمت الكحل على عيني وأنا منهزم أمام ذكراك؟ وحلو الكأس ثمل من فراق أنت قارئة آياته، الذكرى تلو الذكرى تخنقني وما زلت أمام طيفك والحداد، عن أي قبضة سأبحث لأنتشي بسكرتي وأنساك؟ وتبقين عالقة على جدار العمر المنزلق إلى الضياع لولاك، وكلي مركوم على حرف؛ بماذا أرقيك وكنت الرقية والحرز من العين والقلب معا؟!، وقد دثرتني بالأحد والصمد، وها أنا أفشي أسرارك وأدونها على فراش صغاري والصغير يبكي والضرع ينزف حزنا أماه: أما من سبيل للقياك؟.

ريثما أستفيق من تلك الصفعة التي صفعتني إياها أكون قد هجرت البلاد، نعم هاهي طائرتي تقلع من مطار الوطن، لا تجزعي؛ فقد كنت قاسية كفاية لتفطميني عن ثديك وأنا في العشرين، كنت أخاف كل شيء، كل ما حولي يطرق ناقوسه في أذني فأحتمي بك، لم تقرعين يوما حين كنت أنسل إلى فراشك وأبي؟! لم تدير ظهرك لي... حضنتني كما لو كنت في الثالثة من عمر قصفت أوراقه وما زلت صغيرة لم أعرف بعد نطق الكلام، كنت صبورة أمي_لتمهليني عشرين عاما لأكبر وما كبرت، لم أعرف قبل ذاك الخميس الخريفي أنك كنت تملكين من القسوة ما تجعليني أهابك، فلا أتوارى بردائك المخملي وضحكات أقراني تلتهمني، لم أرد فراق البيت الدافئ، أتعلمين أنهم حاكوا مؤامرة ضدي لأدخل رياض الأطفال...؟ لقد أوهموني بأن حجرة الألعاب لي وحدي مفتاحها بيدي أدخلها وقتما أشاء، وعندما قبلت بالصفقة وأومأت برأسي أغلقوها بالمتاريس، حتى غدت ذكرى بعيدة تنام وتصحو معي على وسادة ابنة العشرين، لا تغرك جدائلي ولا حمرة خدي ولا جسدي الملفوف ولا النور المتدفق من عيني، فأنا أبحر في قاربي الطفولي وأسابق وأخبئ حبات الشيكولاتة تحت التراب، لأعود أبحث عنها دون الخمسة عشر رجلا فلا أجد الصندوق، حتى هذا السبت الشتوي وأنا أقلب وحدتي في بلاد بعيدة لم أجد رسائلك بين كم الرسائل من إدارة الجامعة:"أني قد تغيبت كثيرا وآن أوان فصلي."

- لِمَ تهادنت أنت والقدر عليّ وأرغمتني على ما لم استطعه ومنعتني منك، دون أن تمنحيني حق الاختيار الذي لن يكون سواك؟، وبعد حين

زارني طيفك في المنام حاملا كفنك ومبشرا بدار لك في الجنة، لِمَ اتخذت قرارك بسرعة كما فعل أبي قبلك؟، لِمَ لم تنتظري؟.

ها أنا أنهي السنة الرابعة لم يعد هناك الكثير لأقطعه، رغم أن الجامعة قد منحتني بعثة لأبقى في كنفها وأحظى بالرعاية التي ما حرمتني يوما منها؛ و انتظرت وقتا طويلا لأكتشف أني قادرة على الوقوف في مواجهة تقريع الزمن لي، وما علمتني قبلا أنني أنت وأنت أنا، وكان علي انتظار زمن طويل أجدله وأنثره لأعلم أنني أنت؟!.

توقفت يوما عند البئر لا أخفيك فكرت مليا في أن أسلم نفسي لطائر الموت ولكني تذكرت أني أعلم النهاية التي سأنجو فيها لا محالة، وأطفق أبعثر النور وعادت إلي لتطفو تلك الحادثة اللعينة التي ما زلت أذكرها وأنا أخترق ستار الثلاثين، أذكرها رغما عني ورغما عن أوراقي التي أنزعها من روزنامة الأعوام وتفاصيلها التي لا يقرؤها أحد، كنت ذاك اليوم ألقم خروفي الصغير بضعا من حبات الشيكولاتة التي اشتريتها من مصروفي اليومي، لكنه أسرع إلى البئر ليعب الماء فالتقمه وتوارى في ثوان عن الأنظار؛ أألوم الخروف على عدم إتقانه السباحة؟ أم ألوم نفسي على إقحامها بما لا يعنيها؟ أم ألوم تلك الحبات السوداء التي لم تصدق في ذلك اليوم ولم تذب في فمه؟كم من الحوادث علي أن أرثي في ذاكرتي العقيمة!.

كنت حينذاك أسرع بدراجتي ذات العجلات الثلاث في رغوة الصابون التي تملأ ذلك المسطح الذي يغفو تحت ستار الظل واغتسل من حروق القرص الذهبي الذي يحرق بيتنا القديم وسقفه المتهاوي، لم تكن شمس أيلول ولا قيلولة حزيران بل كانت أجنحة الوهج المعلقة فوق بيتنا القديم، نسيت كل شيء لحظة السقوط وتذكرتك أنت وألما في رأسي يؤرق مضجعي ويثير فيّ صيحات البكاء، لقد ارتطمت بكثير من حروف الزمن ونهضت، فكم علي أن أرتطم لأستيقظ من صبيانيتي...

و ركبت يوما ماكينة الخياطة خاصتك لا أدري ما ظننتها... شقية غبية ساذجة سمني ما شئت، لتغيري ملامح وجهك الحانية ويا لقسوتي وأنت

تلملمين الشظايا وما تبقى في جيبك، أيّا ممن تثقل به قيمة الإنسان دون أي رتوش، كنت صافية كما السماء لا أدري لِمَ أملم ذكرياتي وشجوني وشقائي؟ وحينا من الزمن أرمقك وأنت ما زلت تبتسمين على حرف، صمدت ووقفت طيلة العمر وعلى شاطئ أرسيت سفنك وما أسقطت من كبريائك شيئا...؟!.

سامحيني: فلم يكن إنهاء آخر فصول روايتي هينا، لقد كان أشبه بالمستحيل، صدقيني، لم تكن الخيوط بيدي فقد كانت الدمى تتراقص على مسرح الحياة وكنت أنا بينها أهذي فلم أتمم بعد حفظ نصي، قوة ما هي التي تقودنا إلى الطريق المسدود وتصادر أحلامنا الممشوقة وتكسونا بتجاويف في وجوهنا المائلة للصفرة، لقد تعبت يا أمي، من الكذب والنفاق وحلوى الدماء بالمجان، تعبت من الأشلاء المتناثرة حولي في فضاءات الحرية؛ كم أغبطك يا أمي، لكنك أبيت إلا أن تمضي دوني؛ لِمَ تراك فعلت ذلك؟ الحب والهوى والعشق والغرام درجات وكنت الشبق وخليتني، لمن تراني أطمئن وقد سرحت ناظري في البعيد حيث لا قوافي، حيث أتصبب عرقا وأتدحرج فوق الغياب؛ كم انتشيت لحظة عميلة اجتثاث ذاكرتي...!، لا أدري لِمَ عليك تتبع سطوري بكل دقة لتمسكيني مقيدة بجرم ما...؟!، أعترف أني بريئة، بريئة مما يتكالب عليه البشر، نعم، يكفيني إنسانيتي...

يقولون الفقر معيب، والحياء آفة، والخجل علة، والإعاقة مسخ، كلها يا عزيزتي أدام قد تخلينا عنه وتبتلنا بمحراب الغربة والهجين، وصرنا نستلذ بملح غير ملحنا، لكننا تمسكنا بشيء واحد أتدرين ما هو؟، إنها إعاقتنا التي تمنحنا فكرا آخر، بأننا وحدنا من نملك الخيار الأنسب، وبذلك لم نتخل عن قتلنا لبعضنا...

إنها طرق التدين يا عزيزتي في العهد الجديد، الكثير من الجنون يعني أني موجودة لكني لا أملك منه حتى النزر الأخير؛ ممن عساي أسرقه...؟ نعم أسرقه؟ لِمَ تحدقين فيّ هكذا...؟ أدري أني ناسكة وأني راهبة ولكني لست قديسة بعد، السرقة الحقيقية يا أمي ليست بسرقة كؤوس هشة مُلئت بالذهب والياقوت، إنها سرقة من الخزائن المغلقة في قلوب العذارى التي لم

تتم نضجها بعد ولم تكشف على حرمات الكبار ولم تستنشق أكسيد الغش والخداع ولم تلعب لعبة الاحتيال ولم تقطف قطوف الخيانة، ما زالت أحلامها يسيرة بحب صغير وعش ينبت ما فيه على الحب الإلهي ويتبع لحن السواقي ويشرب من قفير عسل،هذه يا حلمي المنسل كما يهرب الماء القراح من بين يدي الصمت، هي من أخطط لسرقتها ومعاشرتها لأحيا حياة القديسين التي فارقتني بفراقك؛ أيمكنك الدعاء لي...! ربما...

الغافلة عن ذكرك...

تشرين أول

أول انبعاث تيار الحب في قلبي...

فوضى الحواس

انزلق وجه النهار على عجل خلف الخناجر السوداء، وقد نزف قرص الشمس وتأبن في ستار الليل، حين امتد سريعا ليسرق الظلال...

سار موكب الجان مشيعا الوجوم وقد قشر الرؤى تلك القناديل المتدلية من صفحة السماء، لتحدق بالأخيلة الذائبة في غيمة الرمال...

تبكي بصمت والريح تعزف فزعة لحن الوداع...

حين اكتهلت مرآة القمر بيتا عتيقا وقد غشيه خيش سميك...

حينما سيق قرص الشمس إلى مقابر قد ارتحل ساكنوها...

ولكن تلك الأرواح المغلّقة عليها القوارير النحاسية بإحكام من رفضت أن ترقد بسلام...

كان شرطها أن تنام بسلام...

دون أن تبلل أذهانها بلعاب الشهوات...

فقط أن ترقد بدفء في القوارير المملوءة بماء الحياة المقطوفة من قرص الشمس...

ولكنها لم تنم لم ترقد بسلام...

أخذ ماؤها يتجمد وازكمتها رائحة الجيف...

وما وراء الجدران المتشققة يتنزه عن الفطرة، ينغرس كأسافين في الوحل...

ربما نسوا وربما نسيت شيء ما قد أنساها؟

ربما ماؤها المتجمد حولها أو ما أصاخت لسمعه من قرع للطبول أو ذلك النور الذي خبا ساعة النهار؟

وقد ماتت عقارب الزمن مشحونة بفوضى الحواس...

حين يموت ناموس الوجود، ينتهي كل شيء...

أما هو فقد أُقعي وكلبه تعبين يتصفد جبينهما عرقا في النهار، الذي تنوس عينه فلا يبصران المدى...

وكأنهما على قمة بركان كور نفسه على صاحبه، يمسد فراءه وقد أضجره الأنين خاو الجسد وقد فنيت المآكل وعروشها...

ما عادا يستشعران الشبع كذي قبل في الأحلام المتهادنة مع الصبر، ما عاد ذاك الثوب من نسيج الصبر يتسرب إلى ذلك الخواء وقد تصدع من رذاذ صقيع صيفهما...

ما عاد يدفئ الأوصال العارية تلك الأعجاز المتهاوية...

ما اخترم نفسيهما واقسما أنها الحقيقة، تلك العارية التي يملئ نورها الليل، ويقسم أخرى أنه قد رآها متلحفة بردائها الأبيض...

وأخرى وقد امتطت فرسا مجنحا يرتقي وإياها أدراج السماء إلى ما تكاد أعناقهما تصبوان لدلوكه، حتى تئن فترجع صدى إلى حيث يجثوان في المغارة الملتصقة بتلك الخناجر...

حيث لا تصل أجفانهما الهرمة إلى الأفق، وقد دغدغت الخيوط إهابها الغض أمام هيبة النور ضجت الضلوع بالحنين، لقد استطاع أن يصطاد القليل من الرذاذ الذهبي ويرقده تحت حفنة من التراب، لتتعامد أنواره هازئة من ألوان الكون الباهتة، كشجرة تساقطت قصصها المليئة بالأحلام...

لعله الهذيان الذي يحرق جذوره الموؤودة بقيعان ضحلة، ما يجعله يشتهي الرغبة ثانية؟!.

أشفقته كانت على كلبه المقعي مجوفا كغصن يابس؟ فأين هي المؤن وأين هي الطرائد؟.

لقد فرغت حقيبة زمانه فما عادت تخبئ في جوفها غيره العدم..وتلك القرية قطعت بزمجرتها كل الفرائض...

-أيشاطر الشيطان أم يلتمس من جديد لقيمة من موائد اللئام.؟

تكور على ذكرياته، قرصات عويل النهار والليل سواء، وذاته صوت السوط ينهب جسده ينز عن دماءه التي تقطر ساخنة، تٌرجع إليه الرجفة مبتورة فلا وقت للآهات والسوط يمزقه.

أي أيام ترجعه أعجف ثانية غير كلها؟ فقد دعكت قدماه ببئر الظلم...

أيان تراه ميعاد شربهم، نجاستهم، لا يكاد يجزم فالقرية رجز على رجز، فقد عاقرته وزنت وإياه واستحالت الفجور فضائل، إنها الساعة ينزلق جسده في فوضى للحواس، هذي التي استشرت كالجذام، كمنابت الشر، يذكر يوم هرب كوميض يجعله متكورا على نفسه، متقلصا ليبتلعه خوفه، وذاك الوفي يتلو خطاه الواسعة لا يضيع له أثرا كظله بدا...

أتراه يحتمي بمن لا أنياب له ولا مخالب؟، من منا منحته الطبيعة قوى أكثر إيلاما وضراوة؟، يستجدي عطفا ببضع لقيمات، هو لا يدري كيف نبتت الصداقة بينهما كبذرة انفلقت وشقت الأرض الصلدة!.

كان يحرسه في كوخه الحقير على أعتاب الحدائق الغناء لقصر اللئيم ذي الكرش...

-أي معاهدة وثقت بينهما من غير شهود ليتقاسما أن يكونا على الحلوة والمرّة؟، وما ذاق إلا أقساها، ذاك السوط الأسود لا يخطئه ولا يخطئ أذنيه وهو يتم العدَّ لخمسة، لينهال عليه مقشرا جلده الرقيق، الجلدة تلو الجلدة

تهوي تهوي بهذيان، وصوت ذاك الخف الرنان وقد تعلقت قطع الذهب على جنبيه يتضاحك.

-أيسعدك أن تحترق أمامي كما الأمس...؟.

فليلتهب جسدي بركانا وما أقاسيه بعد! وما بالها عيني تقطر بملوحة لاذعة تستفز تلك الأنفاق في جسدي الشمعي، وكأنه السوط ذاته يفجر فيّ صمتي؟.

وتلك الأكياس المملوءة بالجواهر تتفاخر أمام كيسي العتيق.

-أي شرخ بين الكبر والكبرياء بين الكره والحب؟، نطف نزعت منها الرحمة!؟ أم تعمدت بماء غيره ماء الطمأنينة؟.

أن ترحم النفس النفس، ذاك الشعور الذي تتشارك فيه كائنات الأرض على حدٍّ سواء.

- أم تراها قد تبللت بأمواه قذرة واستحال طينها لزجا قميئا؟.

حبلى تلك القرية بالشقاء ما عساه أن يفعل وكؤوسهم ملأى بالحبر الأحمر، سكارى هم...

ها قد شخت يا قرية البؤس وقد آتت أرضك أكلها؛ وقلبه ينبض إذا أحرقته، أهي تلك الكلمات الخمرة ما جعلته لا يراوح التفكير إلا في سبل العودة؟.

- إن الأرواح قد جعلت في قوارير نحاسية... تلك الأرواح موصدة عليها الأبواب وها نحن نتصدر السنين، لقد ملوا من تعاليمها ومن النبوءات، ما يردونه بسيط المال والجواري والشراب المزيد من المجون، لا شيء سوى هذا أبه كفر؟!.

وتنطلق الضحكات كأفاع تلتهم ما تبقى من أنفاس وصوت من هناك يحاجج..: خرافات الأرواح.. ما بالهم والتعاليم وتراسيمها؟ والآلهة الطيبة لا تبني القصور...

لقد أقسموا ألا يضيعوا قولا أو فعلا وإن فعلوا فعليهم فلتتساقط الحجارة من السماء، ثم هاهم يتصيدون لهو الحياة. فقط تلك الروح العفنة، التي فرت لكنها فرت بلا رذاذ بلا ملحها الذي يمنحها القوة، فما تستطيع أن تكيل لهم بالصاع...

عندما مد بصره فوق أسياده خرَّ قلبه صريعا بين قدميه،أعين القوم بدت بلا روح زجاجية وحسب وأيديهم متصلبة وتلك الأجساد يسمع لها الخوار.. وما جريرة البلاء إلا ابتلاء وقدره أن يهرول على أربع، إلى حيث يعيش دون عبودية دون رجس، أن يقتات كسرة الحياة والموت سواء...

تلك القمصان الملتصقة بجسده قد نزعها وما بها من محن مائعة فما له من صوامع ولا معابد يتبتل فيها في مهج غادرة مشحونة بأرياح عتيقة، خربة تلك الديار...

ترهل كتفاه وانحنى رأسه من زحم أفكاره والمغارة مشرعة أبوابها للسحب الركام، إذا هي النهاية فلرحمة الله أترانا نصير؟.

عندما اندلعت النيران في الأرواح وقد تجمد ماؤها، غادرت سجنها وباتت حرة اليوم فلا قضبان: هالها ما رأت فكان أجزل مما قد تصيخه سمعا، أهكذا يكون العهد القديم والتعاليم والكتاب؟ فليحل العذاب والموت بهؤلاء لكل من داست قدماه هذي الرمال، فليحل الموت على من تهب عليه ريحها...

شيء ما جعله يرقد بسلام يغفو محتضنا كلبه وعلى محياه ابتسامة، شيء ما دخل جوفه الصائم وبل ريقه بدفء، بلذة تثير الحواس تجعله يهيم في الأحلام المكتظة بالألوان، إنه يكاد يقسم أنه ضمها إليه، بل توغل نورها إلى جسده، كان هذا ما تراءى إليه عندما استيقظ بعد حين على غير تلك الفوضى التي كانت فوضى للحواس.

يا مفارقي

الود ودي لو أني أبقيت رسم شفتيك على كأس حياتي المرة، فغدت حلوة كما أنت؛ لا تلميني إن أبقيت عيني قناديلا لراحتك، وقت ارتميت جسدا له أنّة مفارق، ورسمت لك الطريق بلا أوجاع لتمر به، ريثما يصحو فانوس النور في متاهتي، حينها تكون قد لملمت أشياءك على عجل وودعتني بقبلة من عينيك الناعستين...

-لِمَ لم تطل النظر إلي حينها؟.

-لِمَ لم تشعر ببرودتك حواسي حينها ونسيجنا الشتوي؟.

برودة تجتاحني كلما عنّت على بالي ذكراك، أختلس إليك نظرات من شق الباب وأنت تقلب التلفاز على مضض...

-يقلقك تأخري تريدني أمامك بأي صورة كنت.

-أشعرك بالجنون وأنت تبحث عني في ذكريات قريبة أم بعيدة لكنها ملك يديك...

عندما آتيك ترمقني بنظرة عتاب، أغاضب كل هذا الغضب من دقائق معدودة ماذا لو انتقاني القدر وغبت غيبة لا رجعة منها؟.

-تهمهم ولا ترجع لي ردا، وها أنت يا وحشتي تغيب ولا ترجع لي ردا.

-ما أباسني وأبأس خواطري التي حرمت علي لقياك.

-لِمَ انسللت من سمائي الكئيبة كمطر تشريني بارد؟.

-لأنام أنا الأخرى بعيدة عنك، لكني هاهنا عند مرقدك الأخير، لن أفارقك.

-ما جدوى الحياة دونك؟ قل لي ما لك لا تنطق؟.

إلى جانبك بسلام أُضيّع ما تبقى لي من زمن شقي، وأُضيّع مسميات العمر وآهات المستغيثين وأُبقيني على ذكراك...

لولاك يا مفارقي لما أنشدت أناشيد ولا حفظت المعلقات وما عرفت ليلى ولا قيسا وأسقطت سهوا عنترة وأبقيت فرسه الشهباء تبكيني وتبكيك...

حين نضبت الجداول وصرت أمشط جدائلي في كل بيت من قصائد الموجوعين...

بيت سراجك صار كوة بيتنا العتيق، أقرب إليه يدي فيتوارى بالحجاب، لكني أعود ثانية وثالثة وأنا ألملم خيوط الشمس وأخبئها في زجاجات، وأنيرها في ظلمتي وأُبقي سراجك يطلُّ عليّ من علٍ...

بيت الذكريات خاصتي مليء وكنت هناك، تُحيكُ الحروف والكلمات لك معطفا يدثرني وبقية آمالي على حافة من زمن.

-لِمَ تراها كانت وقتذاك بعيدة؟.

وعويل السراج ورسم أكواخ الطفولة تحت أعشاش الشجر وفوق رمل الطريق!

كلها سهوا غنتها بمجون وتعب فيروز...

أحقا ما قالت؟:

- بكرة بتشتي الدني ويبقى اسمك يا حبيبي واسمي بينمحي؟.

لكنه اسمي من بقي واسمك قد محي...!

- يا ليتها تمطرك سمائي فتنبت خمائل في كل مكان قد خلا من الرياض، وتسودني العتمة البريئة المليئة بالفيافي، لطريق قد اخترته أنت...

وأنت هاهنا ممدد تحت الثرى لا تبصرني...

قل لي أنها كذبة وينتهي كل شيء، ينتهي ألمي وأعود وإياك كما كنا، أتذكر؟.

لعلك تفعل ذلك فذاكرتك جدٌّ قوية..

أما أنا فأسقط الكثير من ذاكرتي المشبعة بأكسيد حبك وأنسى كل أحلامي لأني ببساطة متربعة في قلبك وفي حنو جنباتك.

كم قاسية تلك الأقدار التي تؤنبني وتُعمل جلدا في ذاكرتي المغلقة عليك!

لكني لم أُسقط منها شيئا كما كنت أفعل قبلا وإياك...

أصبحت أكثر دقة وأكثر ترتيبا لأمور الحياة التي جمعتنا سوية، لم أعد أترك قميصك الوردي على الكرسي وأنساه.

لا أعرف لِمَ كان قدري وإياك أن أُسقط وضعي للأشياء لتقلل من شأني لديك؟!

لا أدري لِمَ يتحالف الحزن مع أيامي دوما...

ورغم كل شيء أبقى منتصرة أمام كل شيء، وأنت تؤويني إلى حِلمك وصبرك،

أتوق لذلك الجهل، أتعلم لماذا؟.

لأنني أشعر أنني مازلت صغيرة ومازالت تلك ذات الضفيرة فيّ وحمرة الخدين لم تفارقها بعد.

بهلوسات الكبار وحساباتهم التي تُهرم حتى الحجر.

أما وقد حان الفراق بيننا وقد اقتضيته رغما عني؛ فإني أريد أن أبقى في قلبك؛ دونك الحياة متعبة...

سآتيك كل يوم بأزهار الأوركيد...

وأنهب الطرقات تحت حبات المطر...

وأنسج لأحلامنا مظلة لا يراها سوانا نحن...

ما رأيك بذلك؟

أمممممم لا شك أنك موافق...

الحبر القرمزي

-هل أنت واثق من نجاتنا من هذا الخندق أسفل هذا السجن العظيم.؟ أظنني أرى الموت يا صديقي؟!.

-عليك أن تثق بي.

- ولكني لم أعرفك إلا بين هذه القضبان!، وأنا يا حسرتي دخلت السجن ظلما مجرد مطالب بالحرية يصبح مذنبا بقضية قلب نظام الحكم.

- لا تيأس يا صديقي ودعنا نتمُّ العمل،علينا أن نكمل ما نحن فيه قبل أن تحل الوردية القادمة أنسيت أنها بعد 12 ساعة؟، سنكون عندئذ خارج هذا المكان القميء بعيدا عن سخرية القدر سنسخر منهم نحن الأبرياء.

نظر إليه في عتمة الخندق نظرة الغريق وتابع معه حفرا بهذا الممر، الممر الصغير الذي بالكاد يتسع لجسدين ضئيلين يسيران على ركبتيهما، بقليل من الهواء المليء بالرطوبة...

الحياة طريق متعرج...

فلا يغرنك لهو ولا متاع...

ودع الأيام حينا وتصيدها أحيانا...

أمام الأوراق الكثيرة كانت ورقة واحدة ذات لون مختلف، أمسكها وقد لمعت عيناه من وراء نظارته الطبية، وهو يتمتم: لقد حان الوقت إذا؟!.

أومأ الضابط الواقف بقرب المكتب الخشبي برأسه ثم خرج عن صمته: إنه الخيار الأفضل يا سيدي...

- نعم هذا ما يبدو، عندما تقدر القيادة أنه الخيار الأفضل فهو الأفضل؛ عندما تريد القيادة العليا أمرا علينا تنفيذه، الخلاص من هؤلاء المعادين يعني تطهير المدينة منهم ليكونوا درسا قاسيا للحثالة، ولا تنسى أن هذا التطهير لن يكون سوى دفاعا عن السجن. نبس عن ضحكة فاترة.

- نعم يا سيدي سيكون دفاعا عن السجن أمام هؤلاء المعادين، في عملية آثمة في تحرير المساجين الذين يضرون بأمن البلاد، وبهذا نضرب عصفورين بحجر واحد.

- بل قل ثلاثة عصافير، نستطيع بذلك أن ندعم جهاز الاستخبارات، ونؤكد أنه جهاز استخباراتي مؤهل لقيادة المرحلة القادمة، وبخاصة بعد فشله في حادث تفجير القطار جنوب البلاد، فإخفاقه يضرُّ بنا جميعا ونضمن بذلك دعم طوني لنا...

- تماما يا سيدي إنك على درجة عالية من الذكاء.

- هذه مهمتنا الجليلة التي لا يقدرها أحد. ووضع توقيعه على تلك الورقة ذات اللون المختلف عن بقية الأوراق، ومضى الضابط بعد أن أدى التحية العسكرية، ووقف الرئيس يتأمل المشهد القادم، الذي سيكون رمادا بعد بضع ساعات، بضع ساعات وينتهي كل شيء، وهو يرسم على وجهه علامات الارتياح...

الجسور المعلقة قد لا تهب الحل بالمجان، لكنها بالتأكيد تمنح فرصة جديدة برؤية جديدة...

- ديمتري ما الذي تفعله يا بني؟!.

- لا شيء، لا شيء على الإطلاق. قالها وهو يطوي الورقة الصغيرة بحجم الكف ويضعها بجيب بنطلونه القماشي على عجل.

- أنت تعرف يا بني أن حكومة المدينة قد حظرت وجود أيّة أوراق أو كتب مهما كان نوعها ومن تجد عنده مثل ذلك، يعتبر متآمرا على أمن الدولة، ولا تنسى الحريق الهائل لمكتبة المدينة وما تمت مصادرته من كتب

ومقتنيات من بيوت المدينة، وبهذا تعرض نفسك وتعرضنا لغضب نظام الزعيم...

- نعم، يا أمي أعرف، لقد تخليت عن الكثير منها عنوة، ولكني لا أستطيع التخلي عن حياتي أبدا إنها في الكتب يا أمي، حتى لو جردوني من روحي؛ الجسد يا أمي لا شيء، إنه جسد خواء رخيص فان، أما الروح فهي المقدسة...أما إن حكم وقضت فلتكن في سبيل الحرية. قالها والعرق يتصبب فوق جبينه والدم الأحمر يكاد يفر من شرايين عينيه الخضراوين...

- كفاك سخفا يا ولدي إن أباك رجل مريض، ولن يستطيع أن يتحمل ما قد يصيبك، إنه بالكاد يستطيع أن يتنفس بين هذه الجدران التي تسكن فيها الرطوبة والرعب معا، وأنت تعلم أن ما سيحل بنا سيكون عظيما...

- وماذا عساي أن أفعل يا أمي؟ أن أقتل نفسي!.

- لا، يا ولدي كفاك هلوسة، ربما تتعاطى شيئا، أو ربما انضممت لأولئك المخربين الجرذان؟! أنت لم تكن هكذا،أريدك أن تعقل يا بني.

- أنا لا أهذي يا أمي، وما عدت صغيرا ليطويني أحد تحت رايته، أو يجعلني أتناول حبوب الهلوسة، كل ما في الأمر أنني اتخذت قراري بأن أحمي وطني من هؤلاء الفاسدين.

- يا بني... قالتها وهي تمسكه بقلبها والدموع والضعف قد تمسكا به لكنها عبثا تحاول؛ فقد انسل من قبضتها المنكسرة، وهو يردد: أرجوك يا أمي، بربك كفي عن ذلك، أنا لم أعد صغيرا وأعرف جيدا ما عليّ فعله، لقد آن الأوان صدقيني، آن الأوان... استدار إليها و قبل جبينها ومضى خارجا من العتمة والعفونة والمصباح الكهربائي ينوس بالنزر الأخير وهي تذوب وقد انكسر جبلها وغرق في الماء...

أيها المسكين ستختارك أكفان الغضب، وتجرك الهموم إلى مستنقع لن تستطيع منه الفرار...

الرّوية هي أصل الشيء؛ فلا تكن مزاودا فيأتيك النقص من كل مكان...

من وإلى مزيد من العتمة والرطوبة والعفونة والمجارير، كان ظله ينهبها تلك التي تغطي الطرقات الحجرية المرصوفة والتي استحال معظمها إلى مستنقعات للدماء من حفلات الإعدام التي كان النظام يقوم بها تسلية وتخويفا في المدينة الغاصة بالجزع، وقد زادت في الآونة الأخيرة وبخاصة بعد حادث التفجير الذي حدث جنوب البلاد، الخلايا الجرذانية لم تمت بعد رغم تلك الحملات الشاسعة، التي تقوم بها قوات الحربية في اختراق للبيوت الكرتونية، التي شُقت جدرانها وسكنتها الفئران بل واستولت على جزء كبير منها، وبقيت العتمة ورائحة الدماء والكلاب المسعورة هي التي تنتشر في المدينة التي هُجرت إلا من الانتظار...

قلب وجهه وهو يطوي ورقته بحذر في سرواله الداخلي، بعد التفتيش الدقيق الذي كان في الأيام الماضية لشباب الجامعة، أولئك الذين احتسوا خمرة الكتب ولذة السطور ورصانة الأفكار ومعاشرة الأبطال وحفظت التواريخ لانتصارات كانت بالأمس، هم الذين اشتهوا الحرية بعد أن سئموا الموت البطيء في ظل النظام القميء.

لقد أصابه الصمم من كثرة الهتافات ولكن صداها بقي من يُعمل إيقاعه في جوفه الأجوف، بقي يتتبع صدى الأحذية المنسلة إلى البيوت المستأنسة بالظلال، وهو ينسحب وظله ليلاصق الجدران المظلمة، وأمه مازالت منهزمة كتمثال شمعي أذابته حرارة الفراق، تتبع نظراتها في تلك الصور التي ملأت الجدران: ماهتما غاندي، جيفارا، نيلسون مانديلا؛ من هؤلاء الذين زرعوا في عقل الصبي الترهات؟ أخذت تمزقها غضبانة أسِفة وتناولها لفم النيران، تأملتها و هي تحترق في الموقد مع الكثير من تلك الكتب ذات الجلدة الحمراء وهي تذرف دمعها في أكواب من صمت.

-أتراه بقي شيء؟، أخذت تذرع في الحجرة الصغيرة وهي تنفضها، تفتش أدراج خزانتها وما يمكن أن يدس في أعمدة السرير النحاسية، تلك النيران تنتظر المزيد.

- وقودك الكتب أيتها الشيطانة فليكن لك ما شئت. قالتها وهي تلقي بكل شيء قد عثرت عليه فوق ألسنتها، لتلتهم المزيد والمزيد لم تبق في حجرته على أي ورقة بيضاء تملؤها السطور...

وهي تردد بضعف: لن يؤذوك يا بني؛ كن على ثقة أني سأحميك، لا تقلق يا بني... ستكون بخير، وكانت الريشة التي انغمس رأسها بالحبر آخر ما احترق، همسات الأوراق المحترقة والرماد المتناثر ظل في سكون الغرفة السكنية المظلمة، وقد أغلقت النافذة، وقد أصابها الهذيان.

لتحترق أيها الجنون

ولتختنقي أيتها الصدور

فلا حياة غير هذه

في بطون الظلم...

القلق النابت من بين شقوق الصخر، هو ما نستطيع التشبث به وغيره من الصخور الملساء لا يرجع سوى الصدى، وتلك الأفكار في رأسه أخذت تتبخر، كلما توغل تحت الأرض في هذا الممر الطويل، الذي مازالوا ينبشونه وهم يحفرون منذ أيام، بعد أن اصطادته القناصة، قناصة النظام والخونة، كان و رفاقه في الجامعة يخططون لاجتماع بينهم، لإعلان الثورة، لكنهم أُمسكوا جميعا...

-من الذي وشى بهم وزجهم في السجون المختلفة، وجعلهم مع القتلة والمجرمين والمدمنين؟.

ممن لم يستطيعوا استنشاق غير الهواء الطاعوني الأصفر، الذي كانوا يخترمونه في أجسادهم الزرقاء و وجوههم المسلوخة من التعفن، والديدان والعلق الذي يسكن أجسادهم وهو يتغوطون أسفلهم ويحتسون الماء بصحون قد مُلئت بالبول،

صور أصدقائه يعرفها تماما إلا واحدا قد اختفى، لقد كان المنسق العام لتجمعهم؛ أين تراه قد ذهب؟ هز برأسه: نعم، إنه جرذ النظام، مجرد جرذ قذر، وتفل عن يمينه.

لقد لقيت أفكارهم في الحرية أصداء لدى الكثيرين ولكنها بقيت طي الكتمان، الأحلام المسروقة لا يمكنها الطيران، الأحكام العرفية التي فرضتها الدولة،صور الزعيم التي عصفت بالمدينة كحمى في الطرقات والبيوت والصفارات الرنانة المؤيدة للزعيم المخلص، و المُخلص من قوى الشر...

البيوت التي غصت بالمحتالين والمزيفين الذي يكتبون يومياتهم بتوقيع من الزعيم وتلك الخروقات التي كانت تدق الشوارع ليلا ونهارا كمسمار صدئ، وحمى القتل والسلب لم تكن مجرد كابوس ينقشع مع أول ساعات الفجر...

الضباب ورائحة القذارة التي تفوح من الجدران واللون السكني يسكن الطرقات الضيقة المعبدة وقد ملأتها قنوات المجارير والشقوق في الجدران بحجم ذراع تنصت للأسرار المدفونة في قلوب ساكنيها الميتة، والكلاب الشاردة تنبح والصغار يلعبون نصف عراة وبضع ثياب رثة تتدلى بائسة من الحبال التي تربط بين البيوت المتراصة، لا تكاد الممرات الضيقة في بعض الأحيان تتسع للسائر، وبالكاد تنسل منها الأجساد، البيوت أحجمت فيما بينها عن إطلاق العبارات والتحايا بينها، واكتفى ساكنوها بشرود بائس وعيون أقرب للصفرة منها لأي لون آخر، وهزال قد ضرب الأجساد ولون الوجه قد استحال للزرقة، وقد نبتت ذقونهم وكتلة الشعر تلك أسفل إبطهم قد اكتست بالملح البارد، وبكتل صغيرة صفراء اللون ذات رائحة نفاذة، لم يكن أحد ليسأم العيش في هذه العلب الصغيرة ذات الرائحة النتنة، التي تنفذ إلى ما وراء الأسطح الملاصقة للغيم الأسود، والطائرات الحربية تطير على ارتفاع منخفض ترصد كل حركات وسكنات شاذة كانت أم طبيعية، وتبقى الخرق البالية المتدلية هي من تشهد على تلك الشعارات المؤيدة للزعيم وقد قُصت بأشكال مختلفة، لتكون خِرقا للصغار يبولون عليها، تلك الخرق قد مزقتها أمهاتهم اللواتي كن يعملن في مصانع الخمر التابعة للنظام البائس في المدينة الساكنة في مدار السرطان، وقد قمن بتقطيعها من لفافات الرايات التي تحمل صورا الزعيم والكثير من الشعارات الرنانة، لم يكن لديهن مخرج من الفقر والعراء سوى أن يمزقن

أجزاء قليلة من هذه اللفافة أو تلك دون أن يلحظ أحد المراقبين تسللهن إلى المستودعات الكبيرة، ولكن كثرة السرقات جعلت رائحة تعديهن على أملاك الحكومة ورجالها تفوح، فكان عقابهن شديدا لم يكن حرمانا من الروبيات لقاء عملهن لساعات طويلة دون استراحة في المصنع ولكن إمتاعا لكثير من الرجال السكارى الذين كانوا يستغلونهن ويسوقوهن إلى غرف مغلقة...

الكثير من أناس المدينة البؤساء يساقون إلى الغرف المغلقة المظلمة التي ينعق فيها البوم وتسكنها الخفافيش وتفوح منها رائحة التعذيب، كثير ممن قدرت له النجاة لم يستطع أن يصف معاناته فيها؛ فمنهم من يموت فاغر العينين متيبس الجسد، وقد قيل عن تلك الليلة التي تسبق موته،بل كان جسده ينتفض كحيوان مذبوح وقد سال اللعاب من زاويتي فمه والشرايين برزت من عينيه والشعر المتبقي في رأسه ينتفض من فرط الألم والقيح المتعفن من لحم كان يُنبت أظافره، والعويل.. كلمة واحدة يظلون يرددونها: الوفاء، الوفاء...

-ولمن الوفاء سيكون؟ للزعيم وذلك الوسم على جباههم بالدائرة الزرقاء وقد ميزتهم أما لأولئك الذين قدر لهم النجاة؟، لم يكن لهم مأوى يعصمهم من الموت إلا في مكان واحد، هو عاصمهم، لقد لبثوا في الحانات مذعورين يهربون من شيء مجهول و يتجنبون أعين الغرباء...

زفير الريح ورقصة الميت على مقابر الأحياء هي ما كانت ترصده عينه من خلف النوافذ الموصدة، لكي لا تحمل الموت الأصفر، الموت للروح، لقد، لقد وصل الخوف إلى الأذقان وأعشاشه سدت مجاري التنفس، هذا ما كان يقبض على صدره حتى استشعر قعر البرد، دون أن يجد ما يؤمن له شمعة الدفء، التي ينصهر من رائحة الخوف الذي كان يستنشقه من تلك الصحف التي كان يحملها أبوه الذي كان يعمل في مصلحة البريد...

الكثير من الشؤم من عناوين عريضة عن الحرية، الحرية المسمومة بلا شك، أربعون عاما وذاته العنوان وغيره عن مهرجانات الاستقبال والوداع

ولا أحد يذهب ولا أحد يأتي، ذاتها الأقنعة القميئة وأصحابها هم من يتصدرون الصحف والواجهات وأروقة الجامعة التي بالكاد ضمت من استطاع أن يثبت أنه منتمٍ للنظام بكتابة مئة منشور عن الولاء والانتماء لا يشبه الواحد منها الآخر، كل منها بطريقة معينة من الكتابة؛ من الصعب الكتابة عن الزيف بزيف، ولكن تجارة الرق هي التي راجت في أسواقهم، لم تكن هناك أخبار عن المدن المحيطة سوى أنها تحي الزعيم وتتمنى لها البقاء...

لِمَ يشعر بضيق كلما عبرت تلك السيارات السوداء التي تمتلئ بذوي الخوذ الذين لا يعرفون الرحمة؟ ولا يجرؤ أحد على السؤال: عمن ستكون عليه القرعة في أن يُلقى في القيعان السحيقة حيث تأكله الأفاعي العمياء؟ تلك التي تعرف أين فريستها و تتبع رائحة الخوف وهرمون الأدرينالين الذي ينفثه جسد ضئيل عن طريق تلك الخلايا والعرق البارد...

من أين استنشق هواء الحرية؟ لِمَ لا يعيش كالهوام وينظر بعينين باردتين تبوحان بأسرار الموت أينما ذهب؟.

أشباح ساكني البيوت معلقة بين القبول والإذعان، تلك التي لا بد أن تعيش حياة غير هذه رغم ما سكبته من صبر في كؤوس قد ثملت من غزل الأوجاع بمغازل من هذيان...

رغم كل ذلك نبت بين الصبار زهر البنفسج وزهر قرمزي وآخر بلا لون، لكنها جميعها ستنازعه في قبره، ستطالبه بأن يكون أو أن يستحيل إلى كائن آخر يشرب من كأس أخطأ بخلطته عالم مجنون، ليكون قاتلا أو مجرما، كي يكون قادرا على مواجهة هؤلاء السفاحين ليكن كحلا أسود أو دما أسود جرعة واحدة فقط، يتجرعها بشجاعة تكفل له الكتب التي صودرت من المكتبات وأُحرقت في الطرقات العامة جعلت الكثيرين من العقلاء يمزقون أوراقهم المليئة بالحبر فوق سطورها، ليلعب بها الصغار نصف العراة بطائرات ورقية، تقصفها الطائرات الحربية أو ورقا لتنظيف قاذوراتهم عندما ينعدم الكساء حيث لا توجد منابع لنهر سوى نهر الشقاء.

الرياح الخماسينية الباردة، لا تحمل لهم سوى مزيد من الحملات التفتيشية المفاجئة في أجنحة الجامعة المختلفة التي لا يستطيع أحد فيها أن يهمس لطائر مهاجر، ورغم ذلك تمكن وأربعة من طلاب الجامعة بأن يتقاربوا معا بعيدا عن الواجهات الحديدية...

تمتم: لقد ربضنا في صمت كئيب... كما لو طائر الموت قابض على أرواحهم، رغم ذلك كانوا يتكلمون لغة سرية لغة اكتشفوها، كما اكتشفها إنسان المغارة ونقشها.. لكن أي نقش يعني فضيحتهم واكتشافهم وتطبيق أحكام الإعدام، ولكنهم نظموها كإشارات موريس، كل إشارة منها تعني كلمة، ما لم يدر بخلدهم أن لها معاني أخرى غير معنى الخلاص، وهذا الهدف الذي يسعى إليه كل شاب منهم...

الفرار من الجحيم لن يعني النجاة، بقدر ما يعني أن عذابا آخر سيحل عليهم...

تلقفه المطر برداء مطري أسود كما الجميع وقد كسا الشحوب وجوههم، لكن نظرة واحدة فقط ما كانت تميزهم وبقاؤهم في دائرة الظل، هو أهم سبب لضمان نجاحهم كضابط في الجيش.

-عليك أن تجد طريقك في عمل كمين نتمكن به من اغتيال الزعيم. كان ذلك في الخطابات المعادية للزعيم والمطالبة بالخلاص منه في الغرف المعتمة في القلوب المقفلة بمتاريس، تلك التي تصلها الجرذان حين تنزلق في الأزقة في الأماكن المسمومة حيث لا تبصر الشمس، وتبقى أمالهم في ثكنة الغجر المنبوذة والتي لا يستطيع أحد الاقتراب منها للرائحة الكريهة، والمخلوقات القميئة التي لا يستطيع أحد إبصارها إلا في ألاعيب يقومون بتنفيذها ببراعة، وقدرة لا يتصورها عقلهم الساكن في الخوف...

ولكنهم يبذلون جهدا كبيرا في حضور تلك المهرجانات الخطابية المليئة بالحماسة ورفع العقيرة بالهتافات، وفي نهايتها تعرض هذه الحثالة التي تعيش في الظلام الكثير من شعوذتهم التي لا يستطيع أحد نسيانها، وهم الثلاثة أيضا لم يستطيعوا نسيانها بل تخفوا بزي ثلاثة شحاذين منهم

يرتدون الملابس الرثة ويطلون وجوههم بالحبر الأسود، ويطلون بعضا من أسنانهم بالحبر ويتوارون بتلك الأوشحة السوداء تخفي معالم الوجه، لم يعرفهم أحد ولم ينكرهم الغجر لأنهم كانوا يدفعون ثلاثا من الروبيات، يلقونها في حجر سيدة الغجر العمياء،لا يعرف أحد أنها عجوز شمطاء عمياء، ولكنهم والغجرين كانوا يخشونها فهي تبصر كذبهم، بذلك الجني الذي يرصد لها تحركات كل منهم بل اختلاءه بنفسه في بيت الخواء، وتلك العلاقات المشبوهة التي لا يستطيعون الامتناع عنها، ولكنهم في ذات الوقت يتمنون ألا تشتمّ ريحها تلك العجوز التي تبصر كل شيء، وتعرف كل شيء، لكنها بقيت صامتة أمام هؤلاء الذين تنكروا بزي غجري، وعندما أمسكت برداء أحدهم وجذبته إليها وبفحيح أفعى مشبع بالسموم، لا شك أنها عرفت!، دقات قلبهم البكماء...نعم، إنها تعرف كل شيء.

الجنون ما كان يقذف من عينيه الصفراويين في وجه من الحبر، دون أن ينطق بها لسانه لكنه أخيرا نطق: بأنها قالت أن رائحتكم ليست كرائحة الغجر...

ويبقون على سرهم في أن يتموا خطتهم لاغتيال الزعيم في القريب العاجل، وأحدهم عليه القيام بذلك ويدعمه الآخرون إن فشل بعيار آخر، بقاؤهم مع الغجر في إجازتهم السنوية، التي توافق أن تكون مع احتفالات مدينتهم بذكرى تنصيب الزعيم لعرش المدينة، ولكنهم سيكونون بين هؤلاء بألاعيبهم المجنونة، بعد أن يفقئوا أعينهم ثم يعيدونها ويشربون الدماء ويرجعونها حليبا أبيضا نقيا، ويخرقون أجسادهم بالسيوف ثم يقتلعونها كما لو أن شيئا لم يكن، تلك الحلقات النارية التي يقفزون فيها نصف عراة دون أن تمسهم النيران وتلك الحجارة الكبيرة والصغيرة الملونة تقص فيها العمياء قصصا أشبه بالخيال...

أما العملات الذهبية التي يخرجونها من أنوفهم لم تكن ليفوتها أحد، عندما تنظر للناس تراهم يضعون أيديهم على أنوفهم وكثير منهم يضع إصبعه في أنفه، فلا يُخرج سوى مزيجا لزجا أصفر اللون، كل ما يستطيعون تقديمه من غرائب الأشياء، التي يقومون بها فتذهل الأذهان قبل الأعين.

لم يعرف عنهم أحد ومن أين جاؤوا وهل وجدوا هنا أم أنهم أبناء الجن المغضوب عليهم أم أن سخطا ما قد كان عليهم لخطيئة ما؟ انقسم الكثيرون ولكنهم رجحوا أن لعنة عليهم قد كانت منذ مئات السنين، وقد أخفوا ذيولهم الطويلة والرفيعة في ملابسهم وسراويلهم المبطنة ببطانتين. ولكن الأجيال الجديدة كانت تنبت نصف ذيل ولكن اللعنة لم تنته بعد، والتي كان يحفظها الجميع كبارا وصغارا، وهي ذاتها ما يخيفون بها من أساء من الصغار، لم يعرف حقيقتها أحد فلم يرفضها أحد، ولم يكن من مصلحة أحد التشكيك بها...

"وهي أن سيدة ذات حسب ونسب كانت تدعى إيزابيل قد سكنت في أعالي التلال البعيدة وقد كانت صاحبة مال وإقطاعية كبيرة غير أن كثرة الديون التي تراكمت عليها وحيث أنها لم تستطع الوفاء بالديون فقد صرفت جميع خدمها وعبيدها إلا من خادمة واحدة، وقد تخلت عنوة عن كل ذلك بقرار من المصرف و والي المدينة..والذي قضى بأن تتنازل عن إقطاعيتها وجميع ما تملك، لكن أمام توسلاتها ورجائها قرروا إبقائها في بيتها وحيدة مع تلك الخادمة النصف صماء وقد جاءت إليها في ليلة قد غاب عنها القمر، واسودت فيها السماء وزاد عواء الذئاب وهبت ريح باردة تجمدت منها الأوصال،عندما وقف ذلك الحصان أمام ذلك البيت الكبير وقد حمل جسد رجل جريح، عندما سمعت السيدة إيزابيل صهيل الحصان خرجت تتبعها خادمتها وقد أصابها الرعب عندما رأته ورغم الوهن الذي أصاب جسديهما وبخاصة أنهما لم تتناولا الطعام منذ زمن لم يعرفا تاريخه، قامتا بحمل الجسد الجريح إلى الداخل، وكانت رائحة الدماء قد جذبت الجرذان الهزيلة المتعطشة للدماء في هذا القصر الكبير والذي جعلها تسعى لقرض هذه الجثة، وأمام تعاستهما وقلة حيلتهما قامت السيدة إيزابيل بعد أن أسالت هذه الجثة لعابها الجاف إلى منافسة الجرذان،لم تتحمل الخادمة الصماء ذلك فولت هاربة إلى القرية التي تربض بعيدة أسفل تلك التلال، وكانت تجري مذعورة، وهي تردد: أن السيدة إيزابيل حلت عليها اللعنة فاستحالت بلون سكني وحدبة في الظهر وذيل يشبه ذيول الجرذان

وأسنانا طويلة مستطيلة الشكل وتفوح منها رائحة الجرذان، ومنذ ذلك الوقت بقيت هذه المخلوقات بعيدة عن رحمة البشر أينما كانوا ولم ينالوا من هذه المدينة غير الإهمال والنبذ.وبقيت تلك المهرجانات هي من توقظهم من موتهم، وفي تلك القيعان السحيقة حيث تفيق التماثيل الطينية لتكون أناسي تتنفس وتأكل وتعاشر بعضها بفضاضة، وبين ضحكات ثملة تُخرج منها الصديد وتفوح منها الروائح الكريهة ولكنهم يثملون ويغمسون قطع الخبز اليابس بالخمر في تلك الآنية الصدئة هناك حيث يواريهم الكفن اختاروا بأن يكونوا بزيهم الغجري...

النهاية يكتبها المنتصر بقلم جاف.

- لقد حانت ساعة الصفر، أستطيع أن أشعر بهم وهم يحترقون،ها قد حان وقت الخلاص منهم سنخلص المدينة من دنس هؤلاء النجس، سنقذفهم قربانا للزعيم...

وتبقي بصرك معلقا في البعيد، ليس كل بعيد يؤمل...

-ماذا بك؟ العرق يتصبب من جبينك وحرارتك مرتفعة؟.

-...أمسك بي إني أشعر بدوار، لقد فقدت توازني، طائر الموت يدور حولي وأكاد أراهم زوجتي وأولادي، لقد وعدتهم أني سأراهم سألاقيهم خارج الأسوار، سأعبر وإياهم إلى الجانب الآخر حيث تشتعل القناديل في الليل، ولا تسمع صفارات الإنذار وتزهر زهور الياسمين صيفا والنرجس شتاء، وتحبل النساء ويلدن بربيع خصب، لكن نهايتي قد حانت، لِمَ كان علي أن أفعل بنفسي هكذا؟، لحماية مدينتي؟!، كان عليّ أن أبقى معهم، أن لا أغدر بهم؛ إنهم ينتظرونني هناك أسفل الجبل، عند بوابة النفق الذي حفره المتمردون، سيقعون بيد الحربية سيقتلونهم... يا إلهي عليك أن تسرع، لم يعد لدينا مزيد من الوقت.

-الهواء الساخن يتمدد في هذا الجحر لقد أنقبض صدري وثقلت أنفاسي؛ اذهب يا صديقي اذهب وإن تمكنت من النجاة.أرجوك التقي

بزوجتي و أولادي واصحبهم إلى خارج البلاد، لا تتركهم لهؤلاء الثعابين الذين ينفثون سمومهم في كل مكان.

- ولكني لن أتركك هنا لتلقى مصيرا نعرفه...

- إنه الموت يا صديقي أينما ذهبت،هو وحده الذي لا يتغير بتغير الأمكنة...

- ولكننا سننجو معا سنكمل الطريق معاً...

- لا، أنا اخترت الموت هنا، لن أستطيع المضي أكثر، عليك أن تسرع قبل أن تموت مثلي عليك أن تبصر الحرية، دعني أحضن صغاري وأقبل زوجتي على مهل..."

وأغمض عينيه.

- يا رباه لتحفظك السماء يا صديقي...

وأخذ ينبش التراب وهو ينهال من حوله، كما لو أن مئة معول تساعده؛هل امتدت إليه يد السماء أم أن التوفيق الإلهي قد تداركه في اللحظات الأخيرة قبل أن تكون النهاية المحتومة التي لن يتمكن وحده من تقديرها؟.

ربما اتخذ قراره في أن ينضم لأولئك الغرِّ السذج الذين صدقوا أن باستطاعتهم تحقيق الحرية و إزالة الظلم، لكنهم كانوا جميعا يساقون إلى حافلة السجن وفوهات بنادق الحربية موجهة إليهم في كل منها اثنتا عشرة رصاصة لامعة،تنغرز في صدورهم إن حاولوا الالتفات،إن حاولوا الفرار...

كيف عرفوا بهم؟ لِمَ لم يدركوا أن حلمهم مهما حاولوا أن يقيموا أوده فلن يستطيعوا؟.

الرحمة لن تكون في صدور موغلة بالكراهية، حتى الرحمة قد يختلفوا عليها، لن يكون هناك تعريف واحد لها، هناك تعريفات كثيرة للرحمة وقد تكون بقتلهم و بسخطها على المتمردين ستكون رحيمة على أولئك البؤساء،

ليته لم يبصر ذلك الحقير الذي كان معهم بل كان قائدهم كان يسوقهم إلى الهاوية، ويقف على أعتاب البطولة...

البطولة الهزيلة التي يتصيدها البؤساء التي لا يمكن أن تفاجئه، لقد صدقت والدته البائسة التي مازالت تنتظره، لن يعرف ما هي النهاية؟!، لكنها نهاية الأحرار أمثاله.

عند النافذة الصغيرة التي شهدت على واقعة التهام أوراقه، كانت تلتهم خطواته الراجعة في أوهامها، أصوات الضربات المتلاحقة على الأبواب الهزيلة أصمت أذنيها وقد كانت كل حواسها تتبع صدى أنفاس ابنها، الذي وهب نفسه للغياب.

- والغياب يا ولدي وحش يلتهم كل الفارين، كل المهووسين، ولبثت يا ولدي بالعراء حيث لن يلتقمك سوى الغياب.

- الغياب يا صغيري بعين واحدة دون قلب.

- يا صغيري لِمَ خيبت ظن البائسة التي تحملت الظلم من أجلك؟، التي عانت وأباك فنون العذاب من أجلك وأنت وهبتنا بسخاء للضالين!، كلنا نعرف أن ما نحن فيه ظلم، لكننا عشقناه، لأننا اعتدناه فلِمَ لم تعتده يا ولدي؟ لِمَ لم تعتده؟ اصبر ربما تمطر السماء رحمة...

اخترقت جسدها رصاصات رحمتهم وجسد أبيه اختارته رحمة السماء قبل أن تخترق جسده تلك الرصاصات اللامعة...

لقد خيب الموت أملهم في رؤية الأجساد التي تنزف الدماء ومضوا وهم يضحكون، الألعاب البهلوانية التي أنارت بوهج نيرانها الساحة القيصرية حيث ترتفع فيها أعلام...

- لقد حانت ساعة الصفر...

- نعم، حقا!. نبست منه ضحكة فاترة والتماع من عينيه يبرق من أسفل النظارة الطبية وهو يودع ثكنة السجن بسيارة الحربية...

- أستطيع أن أشعر بهم يحترقون، سنخلص المدينة من دنسهم هؤلاء النجس، سنقذفهم قربانا للزعيم...

وتقف وحيدا تقلب ناظريك قبل أن تفرغ من الدنيا؛عن أي هراء كنت تبحث؟! وأنت تقلب ما سمعته من ذلك الحالم...

-ماذا بك؟.

- لا أدري إنني أختنق، أُحس بثقل على صدري، زوجتي وصغيريّ أراهم أمامي إنهم ينتظرونني وسألحق بهم، لقد وعدتهم بعودتي، لكني لا أستطيع، أشعر بأن أجلي قد حان، لن أستطيع المضي إلى الحرية، حريتي سأدفنها بين يديّ هنا، لم رفضت ما كنت فيه؟ لقد كنت جنديا ناجحا في الحربية أحمي مدينتي وأطفالي وزوجتي، نعيش حياة بائسة لكنها جميلة مع الأحبة، الهواء الساخن يلفح جسدي.

أخذ يبتلع ريقه الجاف وقد زاغت عيناه.

- لقد اتخم الهواء الساخن أنفاسي عليك أن تمضي، لم يعد هناك الكثير لتصل إلى الطريق الآخر.العبور إلى الحرية بضعة أمتار وتكون قد تلقفتك بشائر الحرية...

- أريدك فقط أن تسامحني أني قد شككت بك، أنت أفضل صديق لي أشكرك وأعدك أني سأبذل ما أستطيع من أجل زوجتك وصغارك...

الصغار يتسابقون لرؤية الغجر وهم يبتلعون النيران والأعين المحدقة بهم وقد جمدت الأجساد في أماكنها والحربية تحيط بهم وتطوف بالطرقات وهو بينهم لم يكونوا ثلاثة بعد أن عبر اثنان منهم واختلطا بالصفوف بملابس عادية، وظلت أعينهما تراقبانه، إنه هو من يكتب النهاية..

كانت الخطابات الرنانة تلتهمها النيران التي يبتلعها الفجر، جميعهم أنِسوا إلى إفاقة هؤلاء البائسين الذين لا تستر أجسادهم معاطف الفرو، والذين لم يعرفوا رياضة صيد الثعالب والذين لم يعرفوا الخمر،غيره ذلك الطعم الرديء والسجائر الرطبة التي تباع في الحانات في الحانات عالم آخر،

عالم حر مسموح فيه ممارسة كل أنواع الرذيلة حيث الأبواب المغلقة وحيث الكؤوس والأذهان الذاهلة والموسيقى الصاخبة ورداءة الألفاظ وسوقية الكلام وإباحية الفكر. هناك كل شيء مباح هناك الحرية من أوسع أبوابها التي يتبول فيها المرء حيث يريد ويتغوط في ملابسه ويرتدي ثوب السفاهة...

هناك عناوين عريضة للحرية، ما تسعى إليه أيها الغرُّ ساذج إلى حرية الفكر لا حرية الجسد الجسد، فان بال...

والفكر مؤلم موجع، فلِمَ ينحب هؤلاء البائسون على جسد وهو مجرد قطعة رديئة من اللحم الأرضي الفاني، بينما الفكر الراقي ترجى إليه سلالم؟، لن تجدها تلك السلالم وتبقى الطرقات هي التي حملته إلى هذا السجن مع هؤلاء القتلة...

لماذا حكم القدر عليهم بأن يكون منهم خونة وسفاحين؟ لِمَ لا تعمى أبصارهم وتذهل أذهانهم فلا يفيقون؟.

ها هو ينسحب مع قاتل في زنزانة واحدة وأصحابه كل منهم مثله، مع قتلة...

أهذا هو حكم العدل؟ أن تنصرف أفكارهم إلى دونية الجريمة، إلى معاشرة أفاكين مجرمين لم يعرفوا حتى قانون الغاب؛ أيصيبه الجنون؟ أيصرخ ولن تسعفه الجدران وإن فعل، وإن عقّد الحاجبين؟ فهو مع قاتل سيصفيه بأية لحظة: لذة القتل لا تتبعها لذة فهي تتصدر الهرم...

-عن أيِّ حلم أيها الميت تبحث، وقد نهبت أحلامك مبكرا؟.

لقد أطلق الرصاصة هذا آخر ما رآه، رصاصة كما لو أنها قنبلة، لقد توقفت عقارب الزمن عندها وقد انتصب الكثيرون أمامها، أ وكانوا يعلمون علم اليقين؟، لمَ تراهم يتصيدونها بأيديهم؟ أهي كرة يلهون بها أم تراهم يملكون من القوة والجبروت ما حقا جعلهم يتمتعون بتسمية القلوب الميتة، كل شيء كما خطط له زاوية الإطلاق 30 درجة يسارا، تخفيه المُحكم تغطيته كل شيء كما خطط له ثلاثتهم، كما أعدوا له ومضوا به طيلة أشهر

مضت، دون أدنى شك هناك أمر جلل، خامره الشك وأصابه الذهول وتسرب الخوف إلى قلبه الذي تجمدت أطرافه وظلت كرته الدائرية تنبض وبقوة، فلما إذا يقف هؤلاء وكأنهم يعرفون ساعة الصفر تمام المعرفة؟ هل تراه أخطأ أم أدرك في نفسه أن أحدا قد وشى به؟ ولن يكون واحدا بل اثنان، بقي على ذهوله وهو مكبل بالأصفاد وقد جره رجال الحربية إلى سياراتهم، التقت عيناه بأعينهم، رآهم يبتسمون هذا ما رآه، لن يُكذب عيناه رغم ما سيؤول إليه حالهما من ديدان تآكلهما، سيقودونه إذا إلى ما وراء الشمس، حيث تفيق القيعان على صرخات المخبولين لم يعد يفيد شيء...

لقد كانت رصاصة حالمة رصاصة واحدة تكفل لهم أن يغيروا ما بهم، أحوالهم والظلم الذي يحيق بهم فلما لا يتنفسون ما تبقى من نور الشمس المصادر في زجاجات في أقبية في مكان من قصر الزعيم، ليبقوا على حالهم، ليعيشوا فقراء، نعم، فقراء للأبد ليسوا إلا كومة من الحثالة...

-من قواعد السجن أيها الضابط أن يكون المجرم والقاتل مع المفكرين والعباقرة وطلبة الجامعات، هؤلاء مازالوا ينبتون أفكارا ساذجة عن الحرية، فنجعل المجرمين والقتلى يعلمونهم علما مفيدا، علم الواقع، ما عليهم أن يعرفوه أن خرجوا أحياء، إنهم لن يستطيعوا مهما حاولوا سحق القوة ما عليهم سوى أن يقروا لمفهوم القوة.

قفص واحد وليلة واحدة كفيلة بأن تحول الأنبياء إلى كهنة وعبدة طاغوت سيكونون خيرة السفلة، نتلذذ بعد ذلك بقتلهم أو تسريحهم كالكلاب الشاردة عندما يذهلون ويقرون بضعفهم وإن أمانيهم بانقلاب ساذج سيجعلهم يتعلمون أنهم المسحوقين ولن يكونوا غير ذلك.

- أرأيت أيها الضابط إنه علم السجون، عليك أن تتعلمه بسرعة، إن أردت أن تكون مثلي قائدا عظيما.

- نعم، نعم يا سيدي لقد تعلمت منك الكثير...

الهواء الساخن يرفع من حرارته تجعله يتصيد الهواء النقي البارد.

- هذه الأمتار الأخيرة انتهت، إنها ثلاث أو اثنين أو ست... لا أدري ما هي؟ كم عددها؟.

لم يعد لديه القوة الكافية لينبش في قبره أكثر...

- أطلق أمر المعركة الافتراضية وانقلها مباشرة ليراها أناس المدينة البؤساء، وليعلموا أن هناك من يحميهم، ممن تسول له نفسه النيل من حريتهم المنهوبة التي يريدوها الجرذان...

أسقطته تلك الهزة العنيفة وأيقظته من موت مفاجئ وها هو يتعثر بمستقبله الباهت سوداء صورته، أمسك المعول بيده رغم كل شيء ليعلم النهاية التي يريدها...

هو ليس من يفرض عليه الأقوياء أوامرهم...

اللفحة الباردة وذلك الخيط الرفيع من النور يمد إليه لون الحرية، التي يريدها، سيلتقي بزوجة صديقه ويحبو و صغاره، وبغيرهم في البعيد إلى حيث يتنفسون الهواء البارد، دون أن يتعثروا ببيوض الثعابين.

الفكر الآخر

من البديهي أن يشعر المرء منا بأنه منبوذ عن مجتمعه أو مختلف كليا أو حتى غريب الأطوار ذلك عندما يتعرض لحادث ما أو أن يصاب بأزمة ما تغير مجرى حياته، أو مرض قد آيس الأطباء من شفائه، كأن يصاب الواحد منا بمرض عضال أو أي مرض جلدي قد يسبب العدوى أو قد أُصيب بعاهة جسدية ما، أو لسبب أو لآخر فقد تلك الحواس التي تجعله شخصا مألوفا، يدرك المرء منا حينها أن عليه أن يغادر أو أن يتوارى عن أعين المتطفلين، أو ذوي الأنياب الحادة والألسن السليطة التي لا تعرف الرحمة، وفي أبسط الحالات يقعي على حاله بعيدا عن مجسات الشفقة...

الجيد في هذا كله أن الحقيقة فيه لا تقبل الرهان أو التملص من الواقع فلا نستطيع التمويه أو تغيير الأسماء..

لكن الأسوأ في أن لا يعلم المرء أن المرض قد استشرى فيه كالطاعون، وإن كان بتر العضو أمرا هينا فنزع الروح أمر لا قدرة لبني البشر عليه، فذلك الجزء الذي تراكم حوله صمامات انعدم فيها الإحساس والقدرة على التمييز استحالت إلى باصور، وباصور العقل أعقد من أي باصور آخر فقد يكون نرجسية من نوع مقيت أو جنون العظمة أو فوبيا النظافة أو قد يتخذ أي شكل آخر؛ فيكون الأمر أشد إيلاما في حال التفكير في اجتثاثه لأن صاحبه لا يعلم أنه كالجمل لا يرى اعوجاج رقبته، فلا يكون مالكا القدرة على فرملة السلوك ويبقى عازفا منفردا فيكون عزفه نشازا، وهو بذلك قد انزلق كالزيبق في علاقاته مع الآخرين، ولا يعترف بمفهوم كراهيتهم له وعدَّه منبوذا بطريقة أو بأخرى، ورغم كل شيء يبقى محافظا على اللقطة، متصدرا الصورة...

ووديع رؤوف الذي لم يعرف يوما أنه يملك كل تلك الأمراض النفسية ظل محافظا على منطقه المتحذلق وتشدقه في الكلام،حصوله على معرفة الآخرين هو فن في الفشل؛فتلك القائمة الطويلة التي يملكها بأسماء الكثيرين وعناوينهم وأماكن سكناهم وأرقام هواتفهم لا تعني سوى مزيدا من تلك الرنة التي لا يخطئها من يسمعها والتي لا تعني سوى شيئا واحدا أن الاتصال قد قطع.

تلك الرغبة لديه في تسجيل أكبر قائمة بالمعجبين، لا يمكنه كبحها لأنه ببساطة لا يعلم مقدار ازدراء الآخرين له، حتى فاروق عبد اللطيف، الذي يمكن أن يعتبر نفسه منقذ وديع من أزماته لوصية كان قد أوصي بها من قبل أم وديع قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة،لا يذكر كم مضى على ذلك العهد الذي أضناه وأثقل كاهله؟ ربما يخطئ بالحساب لكنه لن يكون أقل من خمس سنوات على أقل تقدير،كان حينها وديع في الثانوية العامة والتي حصل فيها مجموع يؤهله لدخول كلية التجارة ولكنه ببساطة قرر أن يلتحق بكلية الفنون، لأنه يعتبر نفسه بسبب أو بدونه فنانا بالفطرة، رغم أن جميع من أبصر لوحاته قرر أن يعتزل الفن.

فلم تكن معبرة عن شيء سوى خرابيش، قد يكون ما يضعه الأطفال على الجدران من خطوط مستقيمة أو متعرجة أو أشكال هندسية لا يعلم بالضبط ما قصد منها أفضل حالا منه، وتبقى اعتذارات فاروق مع ابتسامة خافتة عن تلك المطبات التي يقع فيها وديع أمرا لن يترك هكذا بالمطلق، وباتت عبارته التي تناقلتها الألسن وكان لانتشارها كالنار في الهشيم أثرها في إضفاء نكهة السخرية على وجود وديع؛ فقد كان فاروق دائم التأكيد على أن: وديع كإصبع القدم الأوسط الذي لا يؤثر عليه الحذاء الضيق، ولا يصاب بكدمة ما عند ارتطام القدم... فهو لا يشكل ذلك الفارق في حياة أيٍّ من مجتمعه، وعلى مدى السنوات الخمس التي لم يتمكن فيها وديع من الحصول على إجازة في الفنون؛ فقد بدا بنظر الجميع لا محل له من الإعراب... وداد صبري تلك الفتاة التي يعدها الكثيرون إلى جانب جمالها البارع تعتبر نفسها مصلحة اجتماعية، وكثيرا ما تجد في أجندتها الكثير من

الرتوش حول المشاكل التي تمكنت من حلها وموجزا بسيطا عن صاحبها، قد يكون ذلك برمز ما كأرقام أو رسم، وفي النادر ما يكون جملة صريحة تتضمن اسم صاحب أو صاحبة المشكلة.

عندما كانت تتابع تلك الشعارات الرنانة وتلك الأشعار التي يصدح بها كانت مثيرة لفضولها رغم أنها كانت تعاني من عرج في الوزن، لكن لتلك الكلمات التي تخرج من حنجرته كعندليب قطعت أوتاره، وقع في قلبها...

أحتسي الوجع خمرا يُسكرني

فلا كم الجوع يُضنيني

ولا حزم الفقر تقتلني

خطبي أني عاشق وحب الصبِّ قاتلي

وطبول الحرب وعرس الثكالى يعذبني...

ثم ما يلبث أن يستفيق على صيحة مفزعة يتبعها بأقذع السباب عن الامبريالية وحق تقرير المصير لشعوب الأرض ولممالك النمل وقراه بأكملها، وديع رؤوف بالنسبة لوداد رواية ليس لها بداية ولكن نهايتها محتومة، قد يسجن طيلة حياته في مفهوم القسوة البشرية والجنون وقد يوضع في مصحة للأمراض النفسية، لا تدري بالضبط ما الذي شدها إليه؟أيكون إشفاقها عليه ورغبتها في إنقاذه من سجنه؟، أم تلك الدغدغة التي أرغت رغوة في محيط قلبها؟

لم تعرف إن كان ما يسمونه الحب؟ وإن كان وديع استهواها في تلك القدرة العجيبة في مهارة الخطابة.؟

ربما كل ذلك ذكرها بتلك المقولة التي قرأتها في أحد الكتب: إن أردت أن تستنطق حجرا فعلمه أولا كيف يقرأ وإن كنت تريد ملاكا فعلمه قبل كل شيء كيف تكون إنسانا وإن أردت أن تهدي فاسقا فكن رهبانا، وإن أردت أن تقاتل جيشا علم جنديكمهارة الحوار قبل فن الخديعة...

وكون وديع يملك تشدقا في الخطاب وتطرفا لا نظير له، فعليها أن تعرف أن مهمتها ليست بالسهلة فكل المنافذ إلى قلعته الأسطورية محكمة الإغلاق بمتاريس من اعتداد أعمى بالنفس؛ فعندما يجتمع الكثيرون حول لوحة ما بغية نقدها ودراستها، يكون قد شق الصفوف نافخا صدره كديك تركي واضعا يديه في جيبي بنطلون القماش الباهت لونه فلا يُعلم أي لون كان؛ فيسمع نقده اللاذع قبل ظهور صورته... فتشكيلة الألوان ودرجات الظل والرسم ذاته قد تأخذ منه ساعات طويلة في نقدها وتجريدها، كونها لا تخرج عن إطار غباء فني قد استنفد صاحبه الذوق الرفيع؛ فصورة امرأة مثلا تحمل على رأسها جرة ماء، وقد بدا على محياها التعب والضنك، وأرخت جيدها بانحناءة وهنا ما في ظل شمس حارقة، بمزيج لوني غامق والألوان في دوائر متتالية؛ فإنه يراها على عكس ما يراه الجميع من بلاغة فنية؛ فهو يرى في ذلك الرسم، طاقة سماوية متشعبة تتمركز في نقطة معينة تجذب إليها هذه المرأة التي تحمل هموما وتعبا إلى حيث يمنحها اللجوء إلى السماء عدالة ما، قد تكون من العذاب نفسه.إذ أن العدالة لا تعني بالضرورة الراحة الذاتية، التي تتصالح فيها جميع القوى من خير وشر على حقيقة الرضا،وقد لا يعني الرضا الإنصاف إذ أن الإنصاف لا يمكن أن يمنحه أحد مهما تفوق لأنه لا يملكه، و في الحقيقة فجميع المخلوقات على دناءتها تبحث عن قوى عظمى تحقق لها هذا الإنصاف، ولا يمكن أن ينتهي حديثه عند هذا الحد، فسيثير قضايا في المساواة والعنف والاغتصاب، وقد يعرج على السياسة والفساد الحكومي والسياسة المضادة والصواريخ والقنابل العنقودية واللجان الدولية والايدز وغيرها من القضايا التي لا تستهوي أحدا إلا من استأصل كل ما في جوفه من مرارة وزائدة دودية وأجرى عملية للقلب المفتوح...

فجنون الحياة يستطيع البشر تحمله رغم مرارة كأسه إلا أنهم لا يستطيعون تحمل جنون البشر وغوغائيتهم، فإن كانت الأبصار مع وديع رؤوف إلا أنها أبصار قد سقطت منها كاميرا التسجيل فهي أبصار بلا ذاكرة، أما من أبقى بصره وذهنه مشغولا في كلامه فإنه دون شك سوف يصاب

بالغثيان لا محالة، فترى الجموع قد تفرقت وتركته وحيدا في صالات تتجاوز في أبعادها عشرة في عشرة من الأمتار المربعة، يحاضر فيها الوجوه التعسة التي يستحضرها عقله الباطن...

وعندما منحته الجامعة فرصة أخيرة للتخرج بعد سلسلة من الإنذارات بالفصل، لم يكن ليوقفه هذا عما يهوى القيام به، بل زاد الطين بله في تصدره لمنصة الخطاب وسط الميدان التي كانت منحوتة بوق، فقد خلع ملابسه ليغدو عاريا متحررا إلا من ملابسه الداخلية وحذاءه، معلنا أنه قد حان الميعاد للعودة للأصل البشري و بداية للتحرير الإنساني من الاضطهاد، وإن كان مارتن لوثر قد حرر السود من سطوة البيض فهو سيحرر العالم بأسره من سطوة العنف والتفرقة والاضطهاد،وسيكون ك هنبيعل حاميا لإمبراطورية قرطاجة.

...لم يكن ليسقط أيا من الحقائق التاريخية، فقد كان بحد ذاته تاريخا متنقلا متقمصا للأدوار وكان هذا ما يشكل علامة فارقة في قرار وداد في مساعدته، رغم كل الأحاديث عنه وعن جنونه وتلك الصور التي التقطت له وهو يزحف وراء الحرس الجامعي ممثلا حركات جنونية ليقاد إلى لجنة تأديبية بتهمة خدشه الحياء العام؛ كان صوته حينها مجلجلا: أن الإنسان الأول كان أكثر تمتعا بالحرية، وأن حياة القرود أفضل بكثير من العقد والتزمت والتطرف الذي يعاني منه البشر في بداية الحقبة المتخلفة على حد تعبيره.

البطولات التي قادها بسرواله الداخلي كانت تعبر عن مدى الجوع العربي، ومقدار الفواجع التي مرت على أرضه، وذلك الكم من الألم و الصراع الذاتي؛ فذلك السروال الداخلي الذي رسم عليه كفان يتصافحان، قد خيط من تلك الأكياس التي ملئت بالمعونات للاجئ 48 و67، والتي ما زالت تلقي بمعوناتها على أرض زخرت سماؤها بقنابل وزرعت أراضيها بحقول الألغام...إن هذا الكائن المعجون بعذاب لم يكن له يد فيه، يحتاج أكثر من وداد فهمي ليعيده إلى نقطة ما يستوعب فيها أن حجم ما هو فيه لا

يعنيه بالضرورة، ليتمكن من التصالح مع ذاته و مجتمعه بفكر لا يمكن تسميته الفكر الآخر...

جاردينيا

"أشتات أشتوت، هاروت ماروت أفاك أفكوك، دم المغدورين الأبرياء إلي اندفنوا هنا مش هيروح هدر، ذعر ودم وخوف في قلوب كل الناس إللي يعتبوا عمارة 16..."

. سامح هل عرفت ما حدث في العمارة إياها؟

. أي عمارة؟

. عمارة 16 الموجودة عند ناصية الطريق المحاذي لجمعية البرِّ والخير لكل البشر...

. طيب ما دخلي في الموضوع؟

. اسمع يا سامح أنت صحفي وعليك مسؤولية معرفة الحقائق.

. بالضبط يا رامز أنا صحفي ولست ضابط شرطة ما علي سوى سرد الحقائق كما هي.

. يعني تقنعني أن سامح الذي يريد معرفة كل شيء حتى البيضة والدجاجة لا يريد معرفة سر عمارة 16؟

. طيب يا رامز من أجل إشباع فضولك.إحكي لي ماذا يحدث هناكيا سيدي...

عندما ساقته قدماه إلى هناك، ظن أنه مخبول وأن رامز قد لعب في عقله؛ما له ومال هذه العمارة المسكونة كما يقول؟!

وحتى لو صدقت أن العمارة مسكونة حقا فإن الكثير من تداعيات قصته لا تدخل العقل: كيف لأولئك الأجانب أن يدخلوها ولا يخرجوا منها!

ربما خرجوا في منتصف الليل والناس في الأحياء السكنية؛عادة لا يسهرون إلى ما بعد منتصف الليل، وفرضا لو أنهم لم يخرجوا هذا يدعوا للريبة والشك بأن هناك دهليزا أو ممرا سريا يقود إلى مكان ما مجهوللا يعرفه أحد، ولنسلم بأن هؤلاء قد دخلوا أصلا هذه الشقة الكثير من الرعب؟! في نفسه ذهول رائحة ما مرت من هنا لم ينسها، لم تغب عن باله؛ إنها رائحة الجاردينيا...

-أتراك أنت منال وغيابك؟

طيفها، خيالها، لم يدركه غيره وكأنها خلقت منه...

كان ينظر إليها ويتأمل صورتها طيلة سنوات، حتى يجمع ما يستطيع لينشئ عائلة، ولكنها اختفت واختفت صورتها...

لم يعرف عنها أحد، لم يسمع بها أحد، كأنها فص ملح وذاب...

الذعر الذي أصابه حينها هو مس من الجنون...

-أن تعيش معها لحما ودما، ثم تغيب فجأة بلا مبرر...

-أيمكن ألا يعرفها أحد، حتى أهلها أنكروها وهاجروا خارج البلاد...

غرابة روج لها حينذاك في صحيفته، لكنه لم يغب كثيرا عن المشهد... حتى جاءه رئيس التحرير في ذلك الثلاثاء وستار الليل يلفه،وهو مهشم، بالكاد عرفه بعد أن طير منظره النعاس الملاصق لجفنيه، لهاثه، التورم تحت جفنيه المصاحب لزرقة داكنة؛ منظره كشبح ميت هارب من طقوس الدفن يكفي لإثارة الرعب في نفسه، كانت كلماته الأخيرة: اللعنة عليك وعلى منال لقد مستني الشياطين. وسقط صريعا.

الكثير من الفزع كان يدور في دوامته وأسئلة المحققين تعصف به،لم تكن إيماءته كافية.ليسمعها المحققون بجنونهم، كانت حياته آنذاك قاتمة...

طرده من كل صحيفة لا يبشر بالخير، قسماته لا تفرقه عن المتشردين الذين يحومون الشوارع كالباعوض.

-لِمَلا تمسهم تلك اللعنة؟.

-ولِمَ مات رئيس التحرير؟.

-ولِمَ كانت اللعنة وممن؟، أسئلة عصفت بحياته طيلة أيام طويلة وبالكاد تعافى منها وطواها في سجلات قد رماها في النيل، وربما تكون هي من أدت إلى استحالة لونه للحليبي.

ربما كانت تلك اللعنة التي ذابت واختلطت بمياهه؟! هز برأسه نافيا...

-عن أي مخاوف سيبحث وهي تهرول إليه دونما سعي؟.

الشفق الأحمر بدأ يحيك ساعات الرحيل،هو لا يدري لِمَ اختار الظلمة؟.

ربما لأن الروايات ارتبطت بالظلام فهو ستار لكل الخارجين عن القانون وتحالفهم مع أيدي المروجين لمخاوف الناس، هو لا يدري لِمَ وقوفه هنا مع الغروب؟ مع الصمت العالق في الوجوه المنصرفة سراعا إلى بيوتها.

كانت أصواتهم لا تفارق أذنيه، العريس والعروس على سريرهما في الشارع دون ما يسترهما وقد روت العروس شيئا يفوق الخيال: رأت بنتا مذبوحة والعريس روى: امرأة ضخمة الحجم، تسير نحوه بلا رأس...الجنون يصيبه كلما فكر في الدماء واللون الأحمر...

-كم جميل أن يشتم وردة حمراء؟ وكم هو مريع رؤية الدماء وشم ريحها؟.

الصراخ لا يفارق أذنيه رغم حشوة القصة، تبقى الحلقة المفقودة لِمَ خرجوا بأجساد عارية وقد غلبهم الخوف؟، قد يكون هناك شيء من الحقيقة، لكنها ليست الحقيقة الكاملة هي التي يرويها الكثيرون، رامز قد يكون صادقا في مخاوفه، و رئيس التحرير قد تفزعه روايته، وقد يعتبرها لعنة تلاحقه...

الخوف هو الحاجز الفاصل لرؤية الحقيقة التي تعمي الأبصار: فلا يستطيع رؤيته أحد حتى ضابط المباحث الذي أقسم أنه سينام في هذه العمارة المسكونة؛ فرَّ مجنونا، لا يدري عما يتحدث...

قد يصور لنا عقلنا الذي تسكنه المخاوف كل شيء وبدقة، وبتصور كامل يرتب لنا تسلسل الأحداث وبدون فواصل حتى تعيش الوهم وكأنه حقيقة، إنه خلط الواقع بالخيال ثم الجنون...

-أيستعين بالمشايخ كما فعلوا؟ لكن الأدراج اختفت...

إن كانت الأدراج قد اختفت حقا فسيقرر قراءة الآيات المفرقة للجن بعد أن يدخل إلى عقر دارهم...

خطوات قليلة هي التي تفصله عن عمارة الرعب، والتي لم تحدث في قلبه شيئا إلا اسما من روايات هزيلة رواها على مسامعه رامز، ورامز على الرغم من كونه صديقه المقرب أيام الدراسة غلا أنه يجده بعيدا اليوم كل البعد عنه، يتمتع بشخصية أحادية التفكير تؤمن بالسحر والشعوذة وبالقوى الخارقة؛ الهلوسة تصيبه في كثير من الأحيان،هو يؤمن بما تفصله له الأبراج، وقد ترك الكثير من أماكن عمله خوفا من وساوسه، دائم العيش في الوهم...

بالوهم، يهز رأسه وهو يصعد الأدراج لِمكان عليه أن يصدقه أم أن الفضول قد حثه على خوض هذه التجربة؟ أم تراه كمين ليتخلص منه أحدهم؟، أم هو استدعاء للأرواح؟، هل مريرة ستكون تجربته هذه أم مرعبة؟، هل سينزل محمولا بسرير إلى الطريق؟، هل سيخرج مجنونا بهلوساته؟...

واصفا بتعابير وجه مجنونة، فتاة مشنوقة وامرأة سمينة مقطوعة الرأس وكثيرا من الدماء والأصوات، دقات قلبه قد تهشمت وهو يمشي على زجاجها المطحون دون أن يفتر عن ابتسامة، دون أن يرتد إليه طرفه، دون أن يسري الدم إلى أطرافه: هي البرودة الصقيعية التي اجتاحت جسده في تموز؛ هل هو تعريف الخوف عنده؟.

نزف الدماء من صنابير الماء والصراخ الذي لا يفارق الوجوه الخائفة وقد نهبت منها مياه الحياة، لا تبعده عن تصديق فكرة انتقام الأرواح من البشر التعسين...

-هل هو قدرهم أن يحتال عليهم عالم مليء بالجن والعفاريت ليصدقوا بوجوده؟ أم أن تحالفا بين عالم البشر والجن قد استيقظ عليه الكون ذات صباح؟ أم مشعوذة ما جن جنونها؟ أم فيلما سينمائيا يقام على شاشات العمارة المسكونة ليلا...؟، أم حقا أنها مبنية على مقابر لأبرياء وهذه أرواحهم ستنتقم من كل البشر من الجنون...؟،

الأيمان بهذا ضرب من المستحيل، كان أمام الباب الأسود، أمام مقبضه القرار يأتي بخطوة واحدة...

أدار المقبض ليفتح الباب والقطط السوداء ترمقه بعينين متوهجتين كأنها مشاعل؛ كيف أدرك أنها قطط دون أن تصدر مواء أو هرهرة؟.

-من يكون هؤلاء؟.

دخل وبقيت العيون المتوهجة تتتبعه، هو لن يشعل النور ربما سيفعل... عليه أن يغمض عينيه ويعيش مع الواقع؛ هل ستقبض روحه أم سيخرج إلى عالم آخر أم سيحمل بسرير عاريا إلى الطريق؟.

الطريق إلى المجهول، أي مجهول؟.

الدم لا يصل إلى أوصاله وأدرينالين جسده لم يصل ليمد قلبه بالخوف فقد فقد قلبه كل شعور بالحياة بالخفقان، مشاعره مشحونة بالغموض والخوف والفزع الصامت الذي قبض على ذلك الحجر الذي يصعد ويهبط دون أن يبتلع نفسه يبقى عالقا في الحنجرة، كما هو عالق بين فكي العودة وتلك الأعين المتوهجة في ظلمة الشقة العالقة في فجوة الزمن، بين الماضي والحاضر وأزمة الخوف من اختراق ذلك الحاجز الذي يقطع زمنين ولكنه لا يعرف لمن ينتمي، لزمن الأبرياء، أم لزمن المعاقبين لخطيئة لم يقترفوها.

ربما سيلجأ لمواساة نفسه بهزلية ما أو تراجيديا لمأساة ما؛ لن يكون هناك خوف أكثر من الخوف الذي تزامن معه لسنوات حين اختفت منال واختفت رائحة الجاردينيا ولكنها هي التي توقظ مشاعرة المتيبسة وتحرك ش القلب، أينادي في الظلمات، وي كأني أراك بهية كما كنت يا منال؟!

ردة فعلنا هي التي تختلف،هي التي تشرح خلفيتنا النفسية وعالمنا اللامرئي الذي نعيشه... سأسكنك في قلبي وأناجيك: تكلمي وإياي، يقولون: أن الظلمة خير مكان لاستحضار الأرواح، وروحك لم تفارقني منذ قررت المضي.

- بأي لعنة تشكلت؟، إني أقر أنني أهوى أن أُمسَّ بها...

-سأجلس هاهنا. قالها بصوت متهدج بالكاد تعرف منه الحروف: واقرأ القرآن، آيات حفظتها منذ صغري، تجعلني أميل إلى السكينة... وأغمض عينيه، الأصوات تتزايد والطرقات والجدران المهتزة والأرض المدمدمة من تحته، عالمه بما فيه آيل للسقوط، لن يكون هناك متسع من الوقت ليلملم أشعة الشمس في زجاجات؛ تمتم: حقا إنها العمارة الحية، مسكون بساكنين من عالم آخر أكثر جنونا من عالمه...

-لكني سأكون أعند زائر لها، آنستك يا بيت لن أشعل الأنوار ولن أكشف الأسرار، ولن أبحث في الغيب، لكني سآمنكم....

-كم طال من الوقت وهو يذكرها،منال لِمَ عساها عنت ذكراها على باله،وهو لم يجن منها غير سنوات الجنون...

-هل ستراه سيجن ثانية وهي تراوده عن نفسه...

ليفعل ذلك من هنا في الظلمة...

سيواصل البحث عنها وسط الرؤوس المقطوعة... منال ليلقاها قلبه، رغم كل شيء نطق: حبك لم يزل رغم مرور السنوات، دقات القلب وحشرجة وأمواه حارقة، تلف جسدي.

- تناديك أين أنت؟.

- لِمَ يخيل إلي أني سمعتك؟...

سمعت نطقك لحرف الراء الناقصة، لذة كما أعشقها.

نور ما اخترق الظلمة في نعسته داعب جمود جفنيه، وجعلته يفتح عينيه كانت اليوغا من علمته الصمود في معمعة الجزع هي جلسته، وكانت هي واقفة هناك عند البوابة؛ فتح عينيه وأغمضها والنقاط المضيئة في عينيه تلتهب لتشكل عالما آخر في الظلام...

لقد كانت أنت يا منال صاحبة البيت والذكريات والخوف؛ لِمَ عساك فعلت ذلك؟، لِمَ عساك ترديني إليك على هوان هكذا؟، أم تراه وهم تحيكه الجدران كي يبتلعني؟

فلا أجد لي بقية، والبقية كلها عندك، سأكون رفيقك في أي عالم أنت فيه رغم أني رجل قد هرم الحب عنده فقد جن شيب الجزع لرائحتك رائحة الجاردينيا...

على أية حال ليس لي ما أخاف عليه...

الوحدة نفسها التي أصارعها وأنت يا ودادي لهفتي، وشوقي...

سار إليها ليبتلعه الظلام...

يقال أنه بعد عقود كان يُرى بعد منتصف الليل شاب وفتاة يسيران فوق سطح العمارة 16، تزفهم الدماء...

شتيات المصاطب

ريثما تلملم أشلاءك المنهزمة وتقصي عنك ما دنا من ذكريات، يُتمُّ الزورق تموجه عابرا ملتويا حينا وناسكا حينا آخر، ويُبقي حينا آخر سيره متعرجا كأفعى فتضيق أنفاسه عند كل التواء حتى ينفرج ملتهما كل ما في وجهه، حتى ظن الرائي أنّه في بحر عظيم فيستفيق على كومة من البوص الباسقة رابضة وسط المياه أمامه كرجال شدوا أزر بعضهم بعضا، وأشجار السنديان ككومة نبتت من مائه، تنتشي بدغدغاته على حفافيها ليفارقها منسلا من بين جذورها بسلام ويمضي يحرسها قبيل الشروق وعند المغيب، لا يشعر بهدأته أحد إلاه البوص الرقيق، وهو يتلقفه حبوا وعدوا على طول سيره وفي انعطافه حول الجزيرة الغائبة في السكون المجنون.. نبات البوص هذا يحول دون خائنة العين على فجاج النور في خلوة المساكن الوارفة الظلال، وهدير موجه يطغى على هدير محرك هذا الملعون الذي يثير حنقك، فتفيق من بركان بربريتك على سوءة المصير الذي رمقته يوم كنت ترضع الحزن والجوع من ثدي أمك التي هرمت من فجيعة الطرد والنكران...بغشاوة من عينيك ترسم لوحة البكاء ذاتها التي لم تتغير حتى بعد أن تعلمت أن تواري سوءتك بين الألواح الباسقة؛ في عينيك مخبأ قد ورثته عنوة وكأنه ولد معك كما تولد الملعقة الذهبية مع أولئك السذج، والغربة ليس غيرها من كانت غريما وحليفا في الوقت ذاته، الغربة ذاتها من تعيشها كل لحظة لم تتغير مذ ولدت: يقف المركب الصغير أمام كبريائها الملتف على سوق السنديان والبوص والأعناق التواقة للنسيان وتشذيب الأحلام الهاربة فتتلقفه لتهشم فيه كل مدنية... برية تلك الأماكن هي من تمنحك جوازا للتوغل في عذريتها.

وأنت أيها الغريب عن أي غربة تبحث هاهنا؟ مكثت في مثوى الغرباء هذا وها أنت لا تجد ما تغرز قدميك فيه إلا الطين المتراكم على جنبيه، وبعض الحصى رصت بينه لتعين القادم الوحيد لشتيات المصاطب على المسير ليستفيق على عالم مصغر، تطل عليه من بين أشجار السنديان حينها يكون المركب قد مضى بعيدا حيث ابتلعه النهر العظيم مفارقا هذا الوحش البري إلى أجل غير مسمى...

وتمد عينيك لتزهق صورتك عاري الجسد وعاري الروح، لتنبش من كان صوته يسمع من بين فجاج النور المستلقي على صفحة النهر عصي الدمع،"الصغير يبكي يا سلامة، ونحن وحدنا في أرض مهجورة:لِمَ ارتحلنا بعيدا عن الجبيلة؟ لِمَ حكمت علينا بالإعدام مبكرا؟"يطيل الصمت بمجاديفه يقلب ماء النهر المتأرجح بين العلو والهبوط.

-القليل من الصبر القليل منه يا نرجس... يهمس في أعماقه، لكنها لا تتوقف عن نفخ سحابة سوداء تمطره شقاء على شقاء والرضيع ما يفتأ يبكي، والنهر قد تعكر صفوه وأحاديث قبيلته تتهمه بترتيب عجيب لجريمة ليس بفاعلها، الجلاد يقسم أن يجعل ظهره بحرا من الدماء و اسفنجة ترشق الدماء ونهره يطمر ما حوله، يصعقه بسوط من عذاب أصم أذنيه، أزاميلها تنقر مصيرهم؛ لم يعد يجدي الحديث ولسانها الذي لم يتوقف عن التحرك بسرعة، كنابض قلبه وقت سقط شبح الخوف على مضجعه في بيته الطيني في الجبيلة في الظلمةلم يرى وجوههم وهم يقتحمون بيته، فقط رائحة البارود ملأت رئتيه ونرجس لفها بثوبه والرضيع ابتلع الصمت، ونام طويلا من غير أن يشتم رائحة الخوف، ودون أن يرى لمعة الرصاص، لم يفكر كما فكروا بربطه إلى جدع النخلة وإحراقه بالنار، لم يفهم حينها شيئا غير أن عويل النساء جعل سليم يستشيط غضبا ويلفحه بنار تلظى في أعماقه؛ لقد تبرأوا منه جميعا؛ هم لا يؤون السارقين لا يؤون من مد يده لمالهم... لم يمد عينيه أبدا لما له عندهم فكيف له أن يمد يده؟ لقد أخرج ذليلا يتيما فقيرا مجردا من كلمة شريف، رائحة الشواء لم تفارق جسده وهو ينزع البوص من مربع صغير، لبيت السنديان أكثر آمانا من بيته

الطيني؛ ليس فيه غير السنديان وفوانيس القمر...الصغير ما زال يبكي والضرع لم ينبت شرابا يطفئ جوعه، يهمس: اعجني من الطحين وارضعيه خبزا يا نرجس... البنت الرابعة للحاج عبد الغفار من زوجته مريومة التي قضت قبل سنوات وبعد أن تزوج بأخرى لم تستطع احتمال جمالها فزوجتها صغيرة لأول من يطرق بابها، كان سلامة يعمل في أرضه حين أصاخ السمع لنحيب فتاة...لم تكن القرية تحمل صورا كثيرة لغير الأحزان فقدان صغير في البئر،عجل لم تستطع قدماه أن تخرجاه من النهر فمات، وقد قضت أمه بحمى النفاس قبله، سلمان احترق محصوله وبات على قارعة الطريق يندب حظه، اجتاحت فصول السنة التي لم يعرف منها سوى القيظ والزمهرير يتمه وبقاؤه وحيدا في غرفته الطينية، لم يضمن له مكانة عند أبناء عمومته، و لم يتبق له من القصعة إلا المرق، كل من في القرية منهمك بعزائه، وهو يلملم صدى النحيب عند شجرة الكمثرى، راعه جمالها، وجهها، ضياؤها، تمتم: جمال من السما ونازل على التراب؟!، لم يكن ليحلم أن يحط القمر بين يديه...

أي صيب هذا الذي أصابه ليسقط في غيط يعمل به، ويمسك بجدع الكمثرى مواريا أحزانه؟.

سهم ما سقط في قلبه وتوفيق ما سلبه ما تبقى من ضياعه،لم تتردد زوجة الأب من تزويجها له وينتهي أمرها كذليلة...

-الظلم يعيشه كل منا بمنظوره الخاص من تلك الزاوية السوداء التي لا تنبض بالحياة، إنها مشيئة الحياة يا نرجس،مشيئة الله فينا أن يجمعنا مصير واحد لم نختره بل اختارنا؛أي قدر هذا الذي فيه تصميم على اختيارنا دون أن يخطئ فينا، وحدتي كانت وإياك يا نرجس والطفل الرضيع يصرخ...

الفجور والقهر والحرمان وتواريخ الغربة لا تنتهي بروزنامة حياتنا البائسة، وأنت يا سلامة ما زلت ترثي لحالك وبؤسك ويتمك وتآمر أبناء عمومتك، وحدك من يعلم أنه محض افتراء لكن الفقير كاذب، ظنَّ يا عزيزي أهل الباطل أنهم على حق لما غاب منك الجواب.

-أتلوذ أم تستعيذ والطفل مازال يصرخ؟

الشمس الأرجوانية التي تبحر بقوارب ورقية تفيض حبا وحنانا أكثر من قلوب البشر لتنثر الحزن من مساماتنا، وتنسينا ما قد كيل لنا: بأنك لص وفاجر.... الظلم يا سلامة لا يؤاخذ عليه البشر لأنه من طينتهم، ولا يؤاخذ المرء على طبعه.

أزاميل العمر قد انغرست في سمرة وجهك أيها الغريب وقد قبضت على جمجمة عاثت بها الديدان وهيكلان قد تدليا في بئر الحسرة، أنت ورضيع المهد سواء كلاكما قد ألقي في الجحيم، النظرية التي تمنع تحول الماء إلى نار لم تخترع بعد، وأنت تُجلد مرارا.

على أي حافة قد مشيت أيها الغريب وعلى أي حرف رسمت مستقبلك ووشم العار يجلسك أمام مقصلة الأعين؟.

وحدك تعلم أنك بريء كما كان أبوك وقد ثويت ما تبقى من هزيمة في مقابر النسيان التي أورثتها غصبا في شتيات المصاطب، ما تبقى في جعبتك من حكايا لم تروها بعد، لأولادك الذين سيتناقلوها من جيل إلى جيل، وهكذا توارون أجسادكم البالية تحت التراب مبكرا، قبل أن تستيقظ الحواس وأبرياء البشر لم يجدوا سبيلا للنجاة بعد!.

فقراء ولكن...

الطريق المشكوك بنور المنارة التي تقف عارية بعيدا بين أمواج البحر المتلاطم، حيث تمد أذرعها في كل الجهات لتنسج وهجا مجدولا بالأمل، يمسكه الغريق بعد أن فقد القشة، يعترف الكثيرون أن ساكنة المنارة بسحرها قد أنقذته من فكي الموت، وآخرون ينزلقون إلى وجه العراء دون أن يرسلوا بريق أعينهم إلى المارة، حيث تطويهم الطرقات وتطويهم الذكريات فلا يعود أحد يذكرهم، وتنسحب تلك الإشارات إلى أسمائهم مع الزمن من صفحات عجت بالتواريخ...

وهو كذلك عندما يطرق الغياب وحشته يفيق في أحلامه على كابوس واحد يحاول التهامه، فينسل وظله القصير إلى الزاوية التي ما هجرتها العناكب الرمادية بشباكها مذ سكن هذا الكوخ المهجور، إلا من عين المنارة التي ترسل إليه شحنة من شيء قد نسيه، لا يدري ما هو؟.

لكنه يتذكره في كوابيسه وهو عالق بين شقي الرحى تطحن عظامه وتذروها رمادا، كما كانت النساء القرويات يطحن القمح، ترى عن أي قرية يبحث في ذاكرته العقيمة؟ من أي شتات هو؟ تعود به السنين إلى الرماد ودولاب العقاب ودوران الرحى وأغنية الصغار الذين يرتدون العراء ويسيرون في الأزقة الموحلة، وذلك الصوت يسقي ضحكاتهم رغم برودة الشتاء وعصف الريح تبقي الضحكات ورنين الأغنية، وتسقط كسفا كلما مد أعناق ذاكرته لالتقاط كلماتها فيعود إلى حيث يبقى الهجاء والبكاء ونواح الريح يسكن كوخه الخشبي، الذي لا يجمع سوى مترا من الأخشاب عرضا ومترين طولا، ترى لمن كان؟، أكان لصاحب قامة طويلة لفظته الحياة بجنونها، لتحيله ناسكا مع الهموم المشردة مثله؟!.

من الجنون البقاء وحيدا، يطوي لحيته وقد امتدت بين ركبتيه، وذراعه القصيرة تلف جزءا من المسافة المتبقية من جسده، لم يحاول النظر

لجسده ثانية بعد تلك المرة التي قد فوجئ بها بنظرة متشائمة التي تظهر كشق في الوجوه العائمة على السطح حيث ترى النور ولا تراه، من يعيش في الأعماق عالقا في الوحل أو ملاصقا للشقوق الصخرية التي تعمل بها الأمواج نحتا ملتهما كل الملامح.

المشردون أنفسهم يتبرأون منه، وصغارهم يلعنون الأقزام ويضربون المسوخ بالحجارة.

أي منهما تراه؟ أكان مجرد قزم أم مجرد مسخ أم كليهما معا؟

لقد خشي نفسه، لِمَ تراه يخشاها، وكلاهما لا يمكن أن يتعدى كونه الآخر؟! لا يمكن لأي منهما أن ينسلخ عن الآخر، وتبقى الأزقة وأغنية الصغار تدور في رأسه ليدور ويدور ويسقط في نيمة قد اعتادها...

الطرق المليئة بالحوانيت لا تُبقي لأحدٍ الكثير من فرص التفكير، بارتباط ما أي كان نوعه وإن كان مع أعواد الثقاب التي تسكن فوق المواقد، كثيرا ما تسقط نهايتها محترقة فوق الحطب دون أن تنتشي بطقطقة الحطب وأغنية العيد ورقصة الثلج المتساقط وأغنية الحب والسماء المرصعة بالنجوم، رغم أنها ترسل نجوما إلى الساحات والبيوت والطرقات والمداخن وأعشاش الطيور المهاجرة وأزقة الفقراء والعلية التي تسكنها وحيدة ببرودة الجدران وصقيع كانون والشقوق التي تنبعث منها رائحة العفونة والرطوبة، كما تنبعث منها رائحة الدمامل التي تملأ وجهها الدائري بالكثير من الدوائر الحمراء ذات الرؤوس المليئة بالقيح.

تنصرف عنها حلوى العيد وهداياه وتحتسي من كأس الخيبة التي تعرف مذاقه وحدها وتخمن كم كان عيار الخيبة فيه والحسرة، بعد صكوك اليتم والتشرد والكثير من مصائب الدنيا وويلاتها، وتصفر مع الريح وتطلق العنان لأغنية العيد.

حتى المسوخ تحيي العيد وتحب أن تعيشه كما هي المخلوقات التي تسير على قدمين وتغتسل بماء الجمال، لا يدري من الذي هز جسده ودغدغ شعرات أنفه التي طالت مع لحيته الكثة، كتلته الحمراء اهتزت وأيقظته من

غشيته، بسراج عينيه الدائريتين السوداويين في محجرين صغيرين ذرع أرجاء الكوخ الذي لا يشكل في محيطه سوى جزءا بسيطا، الاتساع والضيق لا يعني له شيئا. اصطدمت عيناه بالفراغ الأسود، داعب شعرات أنفه وأقرّ بجنونه حتى خفت إلى سمعه همسات الريح التي أدارت مقبض النافذة وقد همت بالخروج فلم يمنعها، أسرع ليلقم المقبض بالقطعة الصغيرة التي تشبه نصف الدائرة، هو لا يدري لِمَ تشده الأشكال الهندسية في كل سنتيمتر من محيطه! وهي التي يحكم رسمها وتدوينها على زجاج كوخه صيف شتاء مع كم الضباب الذي يعتلي ظرفتها لتصبح كلوح أبيض، الكثير من الأرقام والكثير من الإشارات ويفيق على صفحة من وجهه قد تشوهت مع الفراغ، يلقي بجسده إلى تلك القطعة الصوفية التي يتكور عليها أمام الفرن كقطة صوفية حمراء، وتبقى النقطة الحمراء تروح وتجيء وتغزل من خيالات الخوف الكثير من الذكريات، حيث السلم والقبب البيضاء وصوت يتوسل إليه "لا تصعد..." ويد تشده إلى الأسفل وصوت ضحكة أتبعها نحيب "قد سقطت في بئر عميقة".

تمر الذكرى من أمامه كخيال هارب يمد يده ليمسكها فتنسل مع أنفاسه اللاهثة كأفاع ملتوية .

-من هو؟ ومن أين جاء؟ وما الذي كانه ليكون مقعيا على وحدته؟، لا يشبهه سوى الصمت الرهيب الذي ينفث أنفاسه من بطن البحر والموج الثائر.

اللعب بالمكعبات لا يبني سوى مزيدا من التعقيدات، هو لا يدري من أين؟، ربما من اللاشيء ولكنه يفيق على حقيقة توصله إلى النكران، هو ليس مسخا هو إنسان،أليس من لحم ودم وعقل وعينين في وجه دائري وأنف بارز مدبب وأذنين قد زرعتا في دغل شعره الأحمر، كما جميع الصور المنسحبة فوق الطرقات مجرجرة فراغا في أعلى رؤوسهم. يرجع صدى في نفسه فيسير بشكل قوس في جوفه ثم يرجع له عقيم الجواب: لِمَ لا يكون واحدا منهم؟، لِمَ لا يكون إنسانا وحسب دون أن يميزه أحد بلفظ قبل إنسان؟.

وإن كان مسخا فمن حق المسخ أن يحظى بنصيبه العادل من الحياة دون امتحان، مسخا أو أي شيء فليكن...

إن لم ينصفه صوت القهقرى الذي يلفظه البحر فلن يخسر الكثير، من دونها هو اللاشيء، هو يريد أن يبدأ من أي نقطة.

المهم أن يدوس بلاط الاستقلال من هشيم التفكير وقارض الاستمرار، هو على يقين من وجودها في مكان ما، ربما في جسده في دغل شعره في ظله القصير في أي جزء منه هناك قوارض تقرض سلم النجاح، وهو يريد إبادتها ويرفض أن يكون جزءا من خريطة ميتة لا طائل من بقائها أو بقائه، عليه أن يفكر...

ضوء النهار المتسربل مع الغيم الملامس لسطح البحر، حين ينزلق السواد ليظلل الواجهتين لليل والنهار فلا يميز أحدهما الآخر، تبقى المنارة بنقطتها المضيئة تمارس طقوسها بإنقاذ المارقين بملء الكؤوس الثملة بدهيم الليل، ويبقى صوت الصغار عالقا كنحلة سجنت وراء قضبان أذنيه والطنين هو ما يصبره على شقوته، مادام شبح أحلامه قد رقد في سبات النهار.

السبات الذي لم تستطع أن تطيعه لا ليلا ولا نهار هو الذي أرقدها فاتحة العينين وهي تعد الثلج الأبيض وهو يرسل ثوبه الأبيض لصحراء الأنفس التي شاخت فيها الرحمة، البرودة داخل الجدران هي دافئة خارجها حيث تكون ناسكة مجردة من الإحساس بالوقت وبتلك الدقات التي لا تعني سوى المحتفلين بحلوى العيد، تبصر روحها وهي تنسل حرة حيث لا عبودية ولا سياط ولا وهن وأوجاع ولا نحيب ولا بئر بعيدة، إلى حيث يلبسها البياض وشاحا براقا وثوبا من نجوم، ترفل فيه وضاءة الوجه دون تلك الدمامل، إلى حيث يبوح العقم وتنطق الجدران البكماء، إلى حيث تسير بجنون، بغرابة البراءة وسذاجة الأفكار دون أن تغفو وعلى وجهها ابتسامة دون أن تسرج أنات الغيوم...

تفل بصاقه في المغسلة الصدئة أمامه وقد التصقت به دماء سوداء، متقوسة آماله وقد هُزم سلطان النوم أمام طبول النهار، التي ما تلبث أن تنتزع منه أجمل أحلامه المسروقة، منكمشا على ذاته المطعونة بتشوهات مجتمع نتن.

تأمل وجهه المليء بأشواك ما وجدت الشفرة البادحة، طريقا لها بين ما شاك كغابة شعثاء، رماها بكل قوته فانكسرت على البلاطات المتلاصقة بقذارة صفراء، جعلت قطرات الماء تنزُّ من الصنبور، وقد أمال جسده فاتحا يديه لعله يملؤهما بما يشطف به وجهه المائل للسواد، ما استطاع أن يبيح لنفسه القليل بعد لعله يغير شيئا في تلك البقعة السوداء، التي التصقت بوجهه منذ سنوات خلت، يوم أخذت النيران تلتهم دكان أبي سعدون الاسكافي من ابريموس الشاي، وقد ذابت قداحته قريبا من المنضدة الخشبية والتي ارتكز عليها البابور، كل شيء كان عاديا قبلها وهو يركز عينيه على تلك الفتاة الملفوفة بالشال الأحمر تتمايل أمامه في الطريق المكتظ بالدكاكين، ما استطاع أن يميزها عن حبات المانجا بين يديه يرتبها في الصناديق المصطفة فوق بعضها البعض، و لم تكن كالتفاحة الحمراء في شكلها لكنها برائحتها ولونها تحكي الكثير عن كل فنون العشق، أخذت تتخاطر في باله تمر مرَّ السحاب.

الحب أتراه أم العشق ذلك الجمال كله يدبُّ على الرصيف الممتلئة زواياه بالكثير من بقع الماء؟ عائمة على الطريق تلتصق بأحذية المارة، تزدحم

بهم الدكاكين على الجانبين والطريق الضيق يطوي بُعد المسافات لوحده، يعبث بنظراته جسدها الغض وطرفة عينها الكحيلة تذبحه بل أخذت تخزُّ بظرِّها في قلبه الوحيد.

أي قدر كتبه له هذا الجمال وتلك النظرة الذباحة، ليته تعلم نظم الشعر في المدرسة ومشط شعره بمشط ذهبي و غيّر حياته كلها، لكنه اتخذ من الدكان بين الصناديق المرصوصة بدلا مشكوكا كدبوس في الإسفلت، فعصا عمه أبي قعدة ما فتئت تدق رأسه كلما أطل بخياله عبر الطريق ليشتم ريح الفول والطعمية من دكان جابر الفوال وهباله الساخن يتراقص كأفاع تسرقها الأنوف العابرة، والتي تزدحم بها دكانه وتلك الأيدي تتدافع كلٌّ بقطعته النقدية لصحن فول وعليه رشة من الكمون وقطع البقدونس الخضراء ورشة الزيت الأصفر تلتمع على صفحته البنية كدراهم ذهبية، وما طال بخياله ليزاحم الأجساد المتلاصقة والأنفاس المتداخلة،فقط عيناه من توغلتالتلمظ لقيمات من هناك، كان يكفيه برتقالة ناعسة، ما كان يكفيه سوى الصمت أن يصمت كل الوقت وهو يتعلم الحساب وأسعار الصناديق وطبشة الميزان، لكنه ذاب بهذا الجمال الذي تهافتت روحه عليه مجرد أن داست بقدميها، وقد بانت سيقانها من الشرخ الطويل في فستانها المقلم الضيق، جعلت أحلامه اليتيمة على وسادته تتجمع أمامه كحورية في الجنان وهو يسترها بجسده ليتذوق وإياها التفاحة، ويعرفا مفاتن الدنيا كلها ويعبرا المرج الذهبي ليتعمدا في ماء الرب في النهر المقدس، والريح تغني بقصيدة غزل تائهة مع خرير منساب إلى حيث يذوب سحرهما في بحر يلاصق بزرقته صفحة السماء، ليته همس الليالي الخوالي من ما يشفع له بحب عذري!

تلهبه رقتها بقبلة عابرة من عينيها، ثوان فقط تلك التي رمتها بين أحضانه كأبي زيد ينتزعها من لسعات اللهب وألسنة النار تقبض على ثوبها، أطفأها بجسده وتلك القطع الجلدية تتناثر وتلتصق بكل الدكان وتلك القطعة السوداء اتخذت من وجهه ملاذا أبديا لها، لتنغمس في لحمه وهي تذوب بين يديه جسدها مكور غض، يضغط عليه بين يديه، له وحده دون

غيره يطفئه بنيران حبه، سيله العرم يغرقها مذ أن احتلم وهو يمج من القناديل المعلقة في حلكة الليل، ما لوحه به ضوء النهار.

وأعتقها من النار وأباها مازال يضرب الكف بالكف والنيران تستعر بشهوانية تلتقف بدخانها الأسود كل ما تبقى، كل شيء أمام النيران غدا ضعيفا، حتى تلك الأمواه التي تراقصت على استحياء ذوت، وقد أفضت الدكان خالية مما كان فيها، وهو ناره ما فتئت تستعر من لهيبها يقلبها كيفما يشاء وهي ملتصقة فيه، وكأنما تلاقيا من بعد فراق، وأودعها بين الصناديق في مخدعها يدخل عليها وقتما يشاء.

جعل يقلبها وهي تتوارى بالحجاب وقطع خلوتهما صوت أبيها يسوقه وجعه لوجع ابنته و قد لفتها النيران، سراب كل ما كان:"ليتني أفيق من كابوس." همس الكلمات انتشلها من بئره العميق، وحده يستشعر ألم ما التصق في وجهه بقعة أبدية وصمته كتميمة العمر المارق على عجالة، يستأنس بوميض اللحظات.

وها هو اليوم يقلب نظراته العاجزة في المرآة ما تفيده أن يتفل هنا وهناك وقد انتهى كل شيء لقد تاه حلم وسادته، ليغترف من حفنات النور المتساقطة على بصيص ذكرياته الصائمة، مغاريف من سوء على سوء عندما أغلق باب أبيها، حبيبته ونحيبها يخرق سكون الليل البارد ورفات عظامه تذروه الرياح، وتسقيه المزن لينبت كل كراهية لعذرية الزمن الذي أقضّ مضجعه، لقد فهم أخيرا مسألة المقامات، فهي تفسير لنظرات أبي جرجس الأرمني الأمرد وصفحة وجهه البيضاء قد غارت بهما عينان صغيرتان بتجويف زمني، وحاجبين قد غطتهما عمامته البيضاء التي لا تفارق رأسه مذ عرفه، عندما جاء لأول مرة وفتح إلى جوار دكان الجزار سنقر محلا للعطور، والذباب يتراكم على تلك اللحوم العفنة التي يبيعها وتلك العطور التي تلهب حواس النساء فتراهن كالحجيج إلى دكانه، وعلى الضفة الأخرى أقمشة حريرية ذات ألوان زاهية، تزيد الجميلات حسنا وجمالا، ودكان ودكان سوق طويل كطول عمره عرفه مذ كان صغيرا يُضرب بالعصا، وهاهي تلك

الحسناء توصد نافذتها، وقلبه الثائر في جوفه ينسجها فتلة فتلة ثائرا على وسادته الخالية في منعرجات النسيان بلا حب.

الرهينة 21

هذه ليست المرة الأولى لها بأن تكون قريبة من خط النار، لم تكن أول حرب لها لتغطية حرب الحرية الليبية، و لم يكن أول إرهاب تشهده بعد عقود من القهر القذافي لليبيين والظلم والعنف والصحوة المتأخرة بعد ولادة عقيمة.

لقد كانت من قبل في جنوب إفريقيا ونهشتها حرب مانديلا لنيل الحرية والمساواة مع البيض، ووقفت بين الجماهير التي ذبحت وأسرت ووثقت كل ما دار في تلك البلاد من قصص القتل من أجل الحرية.

كم عليها أن تشهد ليصبح العالم أجمع متمتعا بما يسمى حرية؟.

لكنها هي أول من يعاني من الاضطهاد الذي لم تكن لتعتق منه، لم تكن لتنعم بالحرية كما تريد بل كانت ضربا من المستحيل.

طقوس عائلتها المحافظة وطقوس التفاعل مع قيود مجتمعها حجم حياتها وقصر خط سيرها.

علاقتها المقيدة مع خطيبها فيلب هي ما حصدته بعد قضمها لسنين عمرها السنة تلو السنة، والذي لم يكن إلا بعد عقد شرعي وبشهود يتابعون سقوط الكلمات قبل وصولها إلى أذنيه الصغيرتين ووجهه المحمر على الدوام، لم يكن هو الآخر ليجرأ على استراق النظر الذي كان يتمناه أول ما شاهدها على شاشة الانترنت العالمية، ولكنه لم يطل البقاء لقد فر إلى الجانب الآخر، فقد خرَّ صريعا مات بلقمة علقت في حنجرته.

لم يكن سبب الوفاة حينها مقنعا لها، فقد كانت أخبث تحالف بين الواقع ونصيبها، الحقيقة المرة أن لقمة صغيرة تقف عائقا في مجرى التنفس كفيلة بأن تزهق حياة إنسان.

كيف كان ذلك؟؟ لقد وقع كل شيء سريعا دون أن يمهلها فرصة الضرب على ظهره أو مناولته كوب ماء، لقد فشل في حبس ضحكته من قانون العائلة المرير بأنه لا يجوز للمرأة مشاركة زوجها مائدة الطعام عليها أن تنتظر، لكن الموت لم يمهل أي منهما لينتظر، كان ثمن الضحكة حياة، ضحكته الصغيرة الناعمة كانت وراء جعل اللقمة محصورة في تلك المساحة الضيقة بين اللافوق واللاتحت، التي تعلق فيها طيلة عمرك دون أن تتمكن من تخطيها.

فيلب الفرنسي الجنسية هو فقط من تمكن من كسر الحاجز وتخطاه كما فعل المصريون في حرب أكتوبر وتخطوا خط الرعب وحطموا أسطورة بارليف، ربما يكون مع اليهود أهون من القوانين ومعتقدات الجهل والتجهيل الممتدة كإخطبوط، فيلب واحد من الكثيرين الذين بقوا بعد أن انتابتهم حمى الأطلسي والصحافة المغربية، وحده من نجح في تخطيها لكن لعالمه هو بعيدا عن أعين المجتمع التقليدية، ربما قد وقع في فخ الإعجاب لكنه سرعان ما وجد نفسه في مصيدة قاتلة، التي تترصده في مجيئه ورواحه كمرِّ السحاب.

في العمل لم يكن مسموحا له في ميثاق بينه وبين أبيها، مخطوبته التي تجاوزت الخامسة والثلاثين ممنوع منها الاقتراب وحتى السلام، قائمة الممنوعات كثيرة وكل النصوص خطوط حمراء.

كانت خاضعة لسيوف الرقابة التقليدية التي تحفظ شرف العائلة والمجتمع، مجتمعها الذي يرفض أن ينخرط في التحرر العالمي الذي صخبت به العاصمة على سواحل الأطلسي والتي جعلت بلادها تتخطى مفهوم التقوقع على عروبتها دون أن تنكر تاريخها وهي المشرفة على مضيق جبل طارق والذي حفظ في دفاترهم وكتبهم: أن طارق بن زياد وموسى بن نصير

اجتازا لجة البحر ليدخلا أوروبا، ويقيما هناك إمبراطورية إسلامية بعيدا عن الإرث الحاكم ومنطق السلطة.

لكنهم نسوا أنهم قد حملوا في نطفهم جين العنجهة والتي زرعوها في تلك البلاد، بعيدا عن منطق التاريخ ودراسة جغرافية الأرض والتضاريس التي أمنت بقاء لعقود، بعيدا عن كل هذا تبقى هي بلا ماض أو حاضر...

غير ذلك الذي تحشده لشاشات تلفزة كمراسلة صحفية، ربما عليها أن تتنصل من كل ما يجعلها امرأة من عليّة القوم الذين يتسمرون وراء زنزانة العادات والتقاليد الكئيبة...

الكثير من البؤس الذي تفر منه خيب أملها في أن تنال استقلالها مبكرا دون ثورات أو إراقة للدماء، حالها كحال بلادها فقد نالت استقلالها بعد عقود من الصراع، بعد العثمانيين كان الفرنسيون وبعد بحار الدماء التي شهد عليه الأطلسي والمتوسط والمدن والقرى المغربية كان الاستقلال أخيرا، لكنها بعيدة كل البعد عنه.

حفظها لأسماء كثيرة من الأئمة الذين دافعوا عن الحريات ولم يمنعهم دينهم من فعل ذلك و كان عبد الله بن كنون واحدا منهم بعد أن حفظ كل القيم والدساتير لم يمنحها شرف المحاولة في أن تستقل، عملها بالنسبة لها كان يعني مزيدا من الرقابة ومزيدا من الممنوعات.

كل ما يمكنها أن تقوله أنها على ملته التي منحتها حق التغيير والتعبير عن نفسها وحق المشاركة دون أن تمنعها ديانة أو مذهب أو عرق أو عرف مجتمعي، كم عليها أن تبقي من عمرها أكثر مما بقي؟.

لتكون بعد ما يقارب غروب الشمس كأعجاز نخل خاوية أو حصيدا جرزا السبب وراء صبرها.

كان فيلب الذي عشق روحها المحافظة وبيتها الدافئ لكنه لم يطل البقاء، ليعلم كم هو بارد! لم يكن صمتها ضعفا، هذه المعادلة التي يرفض الكثيرون التنازل عن عناصرها التفاعل الكيميائي الناجح من يمنح جميع

العناصر نسبا متكافئة في المشاركة، حتى التنازل نفسه يعني انتصارها الصامت ورغبة و إرادة في أن تثبت للوجود: أن المرأة ليست الممنوع وليست العرض والشرف الحبيس وراء قضبان العادات المجتمعية وليست سلعة تباع وتشرى دون أن تكون لها بصمة تأكيد أو بصمة رافضة.

قد أجدت نفعا سياسة تكميم الأفواه في الماضي ولكنها لم تعد رائجة في بحر مليء بالتخبط والتغير.

ستنقطع عن زيارتها للمدافن و لن تطيل التمسك بكل ما هو مشوه من مفاهيم، فهي فشل ذريع لفكرها في أن تُشهد العالم على إنسانيتها بأنها ليست عبأ كما يدعي الشرق و ليست إرهابا كما يدعي الغرب إنها عالم متكامل تعيشه وتمنحه وتسير في فيافيه وجنانه وقفاره.

ولكنه اليوم يا حسرتها أصبح ماضيها بعد أن علقت بالوحل لم تعد ليبيا إلا ماضيا ولم تعد العراق إلا واقعا مريرا.

- ما عليها إلا أن تبقى في بيتها. كانت تلك آخر كلمات أبيها ولطمة أمها قبل أن تفر من قيود السلطة الأبوية.

لم تكن لتخفي حرقتها عندما صرخت: أنا لم أعد صغيرة لقد هرمت كسلحفاة بدرعها لم أتزوج ولم أحبل ولم أحب إلا من قتلتموه بأيديكم وجهالتكم، أريد أن أرى العالم من غير تزمت ومن غير تطرف كما هو بالحق الذي منح لي من شريعة قبل ألف عام ويزيد.

ولكني اليوم لست في جوف صدفة لسلحفاة ميتة إنما في كبسولة من قهر وتعذيب وانتهاك للحرمات وإهانة للبشرية.

لم أتيقن من مفهوم الإنسانية إلا في هذه السجون المليئة باللحم البشري المليئة بالسبايا كما يدعون .

-نحن ملك أيمانهم ببساطة يغتصبون ويهتكون الأعراض وهم يضحكون شهوة ونحن نبكي دما، عن أي عرف أبحث في قاذوراتهم؟؟ وعن أي عقيدة

أؤيدهم بها وهي منهم براء؟؟ وعن أي نصوص تاريخية أبحث وكلها قد أُحرقت أمامي وأُسيلت دماؤها في دجلة والفرات.

لم أكن أعرف قبلا أن النساء هي السلعة الأكثر رواجا في مصيدة الحروب وهي التي يتمتع الزنادقة بها ورغباتهم هي التي تربض على براكين من الشهوة والمال والسلطة!

عن أي عبودية للجنس البشري يبحثون؟.

أمام الكاميرا الكلمات أسهل والصورة أوضح حتى لغير المبصرين، رغم وصولها لعديم الرحمة الذي تتبرأ منه دول تملك حق الفيتو وفي الخفاء تقف وراء دعمه.

ما لها والسياسة والمؤامرات الدولية وهي أسيرة في معتقل للبهائم!؟، تقلبها على صخر ملتهب أجوف لا يمكنها المراهنة عليه.

وراء القضبان الصورة قاتمة ومشوهة رغم كونها مليئة بالقصص والأساطير.

لا يمكن وصف بشاعتها مهما أطلق العنان للخيال.

وتبقى أحلامها مجردة من كل شيء، أسوء نصوصها أن تجرد من إنسانيتها، ربما لو عاد بها الزمن وتحققت حينها أمانيها ببيت صغير وزوج وراء قضبان من حرير، دون أن تكون مجرد رقم لرهينة مغتصبة.

الحياة من وجهة نظر أولئك الذين لا يتألمون هي القتل ولكنها غيرها تماما للذين يتبرجون بصدورهم العارية أمام البنادق والصواريخ والدبابات ربما تكون كلماتها الأخيرة:

-العار لا يكون بالاغتصاب بل يكون بمنح المغتصب شرعية القيام بفعله...

-اغتصاب حريتنا لن يميتها بل سيحيها مرة تلو المرة...

-لأن العذارى دوما يخلقون من رحم الأرض...

الحقيقة الصامتة

الزمن يُسيّرُ الأقدار ذاتها كسيل عرم ينهب الطرقات، معراجه إلى حيث نبت أول مرة تلك البداية الصادقة مهما نزفت على مقاصلها الأرواح، تبقى هي من تبث في الأجساد التائهة إلهام البحث عن الحقيقة والصمت جزء منها، إنها الحقيقة الصامتة حين أعلن استسلامي في معركة لم أردها، ولم أكن من مرتادي ناديها يوما وإن كانت لغتي فشوقي إليك لغة أخرى لن تتهيه تلك الكثبان الرملية ولن يمر ما بيننا إلى نفق النسيان.

اسمع كلماتك ترن في أذني من على هذا العلو الشاهق، فوق أعلى نقطة من تمثال الحرية حيث لا ذبذبات للصمت ولا فوارق بين البشر، حين نرمي أبصارنا إلى تلك الصفائح المترامية ولتلك العلب السوداء حيث لا نجد متسعا للغوغاء ولا لتلك الفوارق التي نبنيها بقواعد إسمنتية، تلك المرأة التي تصف لطفلها الأصم بإشارات تترجم على وجهه وعينيه إمارات الدهشة، إنها تحكي له قصصا عن تمثال الحرية وعن الأمواج التي تعتليها بواخر وعن سماء تعتصر حمرة خجلة من تلك الأشعار فتمنيت حينها، أن أكون ذاك الصبي وأنت من تترجمين لي الدنيا بكلمات.

ورأيتك السماء خجلة ووجنتيك يفر منهما الورد، كم أنت جميلة يا سلمى!! وكم أنا شقي حتى التمرغ فيها...ك كلماتك تزخر بالوجع لفتاة لم تقطع عشرين ورقة من تقويم حياتها بعد!، في عشقها لرجل قضى نحبه في دفتر العزوبية وهو يبني أسس وجوده، قضى من العمر خمسين خريفا فأنَّى للربيع أن يعود وإن حظيت يوما بصورة أخرى فيها صباغ للشعر وترميم للأخاديد فالحقيقة يا سلمى لا تستطيع أن تُجز بمنجل وتحزم لتباع وتشرى حسب الأهواء.

كيف أقنع نفسي أن حكاية حبك لي مجرد لهو ولعب وهي لك مجرد وهم لا غير؟، ببساطة لقد فررت، فررت منك خوفا عليك يا سلمى، خوفا عليك من ذئب الندم الذي ينهشك بمخالبه إن عاجلا أم آجلا، فإن غطيت عينيك عن تلك الهوة بين جيلينا فلن ترحمني الأيام وأنا أستيقظ على نحيبك قرب قبري، وأنت ما زلت تمضغين اللبان وتُلبسين العرائس والدمى شرائط من ألوان.

الحياة يا عزيزتي امتحان بالغ الصعوبة علينا أن ندرس له جيدا ونعد أنفسنا لاجتيازه، لئلا نسقط في الفشل الذي لا رجعة بعده، عديني أن تتقني فن التركيز وملء الفراغات بالعبارات الدقيقة، عليك ألا تتجاوزي الوقت فالوقت له نصل يا سلمى يبترك إلى أجزاء فتكونين أنت واليأس متهادنين .

عليّ أن أفرض عليك يا سلمى لغة جديدة هي لغة الواقع فكان قراري بالسفر، نعم، إلى حيث لا أحمل معي غير كاميرا رقمية وقبعة ومعطفا كنت قد أهديتني إيّاه وطرزت اسميّنا على بطانة جيبه الداخلية، خشيت أن يعرف أحد أنك تعرفين رجلا يكبرك أعواما وأياما لا يحملها ميزان العاقل.

لم تعد آلة الزمن تقوى على منحي فرصة أخرى لرؤيتك فقد توقف الزمن هاهنا تحت السماء الخجلة، عندما وقع قلبي أمام قدميك، كنت حينها في قداس جدتك تبكين بحرقة..قدمت لك منديلا لتجففي وهنك ومررت سريعا وقد أرخيت على عينيك ذلك الخمار الأسود منسدل من قبعة سوداء قد تربع عليها طاووس فضي ومشيت مع قريباتك وأنت تتوسدين الأنين والضعف منك كان عصاك وخليتني يا عزيزتي عند القبر، وأنا أشكر الرب أن جعلني ألتقيك.

لا تفهميني خطأ، اللقاء يا عزيزتي هبة من السماء لا تمنح إلا للقلوب الصادقة وكانت سمائي بك زرقاء تحمل غماما أبيض وأغاريد الطير كانت مرهفة في سيمفونية تطرب فيّ الإحساس بعد أن عشت معها عمرا بلا ألحان كان وهما كل ما كان، فآثرت السفر بعيدا إلى بلاد أخرى لا أبوح بأسراري إلا

لتلك الرقائق التي تلقى للطير والأسماك فينبتون في أرض أخرى تبعد آلاف الهكتارات سرا لنا قد كان.

فراري من أجلك، خوفي عليك من مستقبل مجهول أنت فيه أول ضحية، كلماتك الرقيقة تزف بشرى أنني قد يقدر لي أن أقيس هضاب الفكر وعامود الهواء ينسحب من بين السماء والأرض وتبقين ذكرى تؤرقني.

-تقنعني وكأنا ما التقينا ويندمل نفقنا من صخر ما عرف الحب يوما، لن توقفني تلك الأفكار المشحونة التي تنزف فيها معتقدات افتراضية أتدري ماذا؟. قلتها وصمت.

أدري يا عزيزتي سلمى أني لست من جيلك، لم يتسن لي بعد ارتداء سراويل تعريني بدل أن تسترني ولم أتناول بعد حبوبا تجعلني أصل الليل بالنهار وأنا العب ألعابا إلكترونية حمقاء، وكنت كزوبعة في فنجان رغبتك في فهم الأبوة عن قرب.

أسئلة كثيرة تلك التي لم أستطع إجابتها ولكني قد أجد يوما إجابات كثيرة، كي تقنعني أنا دون عبء رضا الآخرين، سيقولون: صغيرة ألهاها بالحب والكلام المعسول؟؟، و يقولون: ودُّه لها أماتها فما عادت تجدل ضفائر الدمية، ويقولون: أرملة الأيام المعدودة.

كم هو مخيب للأمل ما سيقولونه لو أني تبعتهم لكنت في عداد الموتى قبل أن أولد.

-أتصدقين؟، هذا الذي أمامك حارب حروب لولاها ما كنت هاهنا تنعمين بالأمن والأمان و تنقشين الحناء، هذا الذي أمامك اشتعل رأسه شيبا وهو ينبش باحثا عن الحياة، ربما أكون قد خيبت ظن الكثيرين بفعلة ظنها الجميع حماقات لكني على قناعة أنك رغم كل ما يدعونه. -أمممممم وماذا يدعونه؟. سألت وأغمضت العينين.

أجيبك يا سلمى: أنهم يدعونه الحب الكهل الذي لا ترجى عافيته، ربما تكون تقاسيم الوجه والجسد هي من طبعت الصورة الواضحة عن

شيخوخة البدن ولكنها لم تكشف عن الروح وعن تقاسيمها، أكاد أجزم أن هؤلاء ممن حولي لا يكادون يفهمون ذلك الفقه من التعنت، ربما أكون قد كبرت وشاخت صورتي ولكن القلب فيّ لم يشخ بعد يا سلمى، أدري بحالك وبسقوط كلماتك كما تتساقط الكسف على سماء قلبي.

-لا أدري كيف أقولها لكن هكذا هم يقولون: يعني.

-أنا يا سلمى لا أحب ترديد التوافه كما الببغاوات، قوليها جليا لما تستحين؟

- ولما استحي؟. أجبت ثم غبت في صمت رهيب.

- رجل أشعل الزمن رأسه ونبت له كرش وجففت السنين عروقه فاستحالت أخاديد، أتعلمين كل هذا لا يهمني، ما يهمني أن لي من الرزانة ما تجعلني أدير ظهري للمظاهر وللسطوح الملساء ببساطة أريدك أن تنضجي كفاية لتعرفي قيمة الحياة، إن الهوة بين جيلين لا يمكن ردمها بالاختباء في الرمال الناعمة، ذاك الجيل الذي نعته بجيل الضعفاء والذي ما عرف الثورات واقترن مع البؤس والشقاء، هو الجيل الذي عشت فيه ونخلته في غربال كل لحظة من حياتي، تريدين رأيي وأنا أرمق في البعيد طيرا بائسا قد اشتهاه طير آخر رأيته يمارس الجبن بفظاعة، ما عرف الفرار إلا إلى فم المفترس، ما أبشع الضحايا عندما تقدم نفسها لمقصلة الجاني على طبق من ذهب، رأيي أنك صاحبة القرار في كل شيء اختيارك هو مصيرك، لن يقرره أحد سواك فليست حياتك ملصقا للدعاية والإعلان، قطار يجوب الشرق والغرب ويسير على مكث هو من تستطيعين فيه تأمل الطبيعة دون أي إضافات، فتمتعي برؤيتها وراقبي الشمس التي تفر مني هاهنا على الدوام، وأصدقيني القول: أمحوت شعاع النور يوما عن عينيك وتمنعت عن لسعاته وقت الضحى ونثرت جديلتك لتموج كسجادة ذهبية تموج مع النور؟! أرأيت أني ذاك النور الذي يشرق من قلبك!؟.

-الحب يا سلمى رسالة مقدسة ليست مجرد أهواء وإغواء، إنها بحر كبير تمخر عبابه سفينة نوح فإما أن تطفو وإما أن تكون من المغرقين.

جعلتني أتهادى كما الموج أمامي على أنغام سيمفونية ما سمعتها يوما غير منك ومن موج البحر. قد تعجبين يا صغيرتي أن للسيمفونية طقوسا

ومفاتيح تشذ عما تستلذ به أذناك، لكنها سرعان ما تعيد ذاته الرتم فتستقيم الأمور ولكن الأمور لا تستقيم إن مددنا أبصارنا وأسماعنا إلى ما يغير اللحن على الدوام.

أنت وأنا ضدان يا سلمى، عوالمنا مختلفة تتقاسم الفوارق المجنونة وتنقصها العقلانية في كثير من الأحيان، بل أعترف في جلها أنها متنافرة الأقطاب، أنت تجلسين في قطار الرفاهية في مقاعد الدرجة الأولى تحتسين كوب الشاي المذهب في قطار به من الرفاهية ما فيه، والمنظر يشرق أمامك على ما تريدين، في حين أننا كنا نشد الرحال على دوابنا وكثيرا من الأحيان نتوكأ على سيقاننا كعصي الخيزران وعلى مد البصر تتراءى الجبال والطرق الوعرة ومساكن الجن وغابات الأشواك والمستنقعات، ما كنا ندري متى تفيق الشمس من غفوتها ؟، فكثيرا ما سبقنا تبرجها وإزالة اللطام، نعاكس سنابل القمح في الحقول ونجز أعناقها بالمناجل و نجمع قصيمها من بين الشوك والصبار، كنا صغارا فلا يعيبنا أنّا ما عرفنا طعم الشيكولاتة السويسرية وقد ذابت أصابع الحلاوة في أفواهنا وداعبنا الديدان وهي تطل برؤوسها من حبات التين ونافسنا قفافير النحل.

كم لسعة لسعنا؟ لست أدري كم بكينا؟؟، ما ظننت أنّا عرفنا ذلك الطعم المالح بقدر ما عرفنا المرار، كنت يا سلمى تركبين لمدرستك بسيارات ذات نوافذ تحميك من لسعات البرد وحبات المطر ووهج الشمس وزفير الريح وكنا نقصد غرفة بسقف من إسمنت بارد على بعد ثمانية كيلومترات بأحذية من مطاط ،عندما نبت الكرش يا سلمى كنا قد توقفنا عن المشي تحت المطر وعجلات الشاحنات تقذفنا بالوحل من المستنقعات وأحذية المطاط يا عزيزتي لا تتسابق إلا بإصدار الأصوات عزفها منفرد صيف شتاء، لم نكن نبحث عن ماركات الملابس بل كنا نتسابق لما يغطي أجسادنا من أسمال تكون لنا عيدا، لم نتعلم مثلك رمي الفلس في سلة المهملات بل كنا نتنافس على جمعها..

رقيقة تلك المشاعر التي تنتابنا يا سلمى عندما نمد أيدينا بالعطاء، تلك الدغدغة التي تبدأ من رقرقة في العينين وحشرجة في الحنجرة عندما يبتلع الكلام فلا تستطيع أن تتيقن من مخارج الحروف، ثم تجتاح جسدنا تلك

القشعريرة التي بالكاد نستطيع نسيانها عندما نطحن في مطحنة الحياة وصعوبتها، هي الحياة يا سلمى التي تسلمنا هكذا دون مساومة للأقدار.

المرجانة الملعونة

عندما تعتاد على ترنيمة ما فإنك تصبح عاجزا عن فراقها وتنصت جليّا إليها وكأنك تسمعها لأول مرة لكنها عندما تستحوذ على تفكيرك وتحيلك إلى مسخ تتفنن في ميتته، فهذا أمر يدعو إلى الجنون ذلك الجنون الذي أصبح حليم أسيره، أصبح عاجزا تماما.

إنصاته لتلك السيمفونية لأعوام جعله الحاضر الغائب في حضرة غريمه المجهول، لا يدري متى كانت بدايته لكنه لم يظن يوما أنه سيعيشه، هاجسا يتبعه في تفاصيل حياته، أعماله التي أصبح عاجزا تماما عن القيام بها كانت كفيلة لتقعيه على مسمار ظرٍّ يدمي جسده، لم يستطيع الاستيقاظ من إدمانه الذي جعله حبيس الدقائق الأخيرة.

تصرفاته اليومية لم تعد تهمه ما اعتاده أصبح عبئا عليه، الهالات السوداء حول عينيه، ضمور وجنتيه وبروز عظام صدغيه، كلها غدت علامات فارقة، لقد اختلف عن نفسه جذريا. صوره فقط التي تشهد أنه لم يكن كاليوم شابا في الثالثة والعشرين بعينين متوقدتين، بتلك الكرة السوداء التي تتوسط عينين لوزيتين، شعر بني ينسدل إلى أسفل كتفيه، سحر ما في وجهه البيضوي.

تلك الأطر الذهبية قد أنهت حاضره ورسمته التي جسدها في جسده الضئيل، كما لم يكن يوما بدا، فقد طالت لحيته وشعر رأسه الكث، هندامه المريع كله سقط سهوا من كتاب وجوده، الذي لم يتسنَّ له أن يتمَّ قراءته بعد، حجرته المذهبة ذات الجدران المكسوة بقشرة قد تربعت عليها

نقوش لبحار وشطآن، مساحات بيته الكبيرة امتدت على جدرانها جبال ووديان وكتل جليدية وأمواج متلاطمة، لقد كانت عالما بحريا لم يستطع الإبحار فيه يوما ولا حتى السباحة على شاطئه، لم يتسنَّ له معرفة تلك الأسماك الملونة وتلك الأصداف والقطع المرجانية في الحوض المائي، الذي نحت في الجدار على امتداد عشرة أمتار.

إنه عالم لم يخلقه ولم يضع بصمته عليه، وحدته يقطع بها مخاوفه من هدير الأمواج وأصوات الأسماك والفقاقيع، وتلك السيمفونية بدت لوحدها عالما خاصا متربعا على طاولة زجاجية وسط المحيط الهادر الذي يعيشه.

كان يوما حوله أناس يقدمون له الحياة على طبق من ذهب، ولكنهم اختفوا ترى هل ابتلعتهم الجدران ليسمع صراخهم في هزيع الليل، كل شيء يرجع صدى إلا أنفاسه التي ابتلعها فلم يعد يذكر أنه قد ابتلع معها لسانه.

لم يدر لما تغير كل شيء من حوله؟، فقط أصبحت الوحدة وتلك السيمفونية نديمته ليل نهار يحتسي كوب الصمت، ويرتجع ما في جوفه من أنفاس لم يعد يذكر سوى أن عليه أن يموت، أن ينهي أمر حياته، لكنه يذكر في مكان ما في عقله الباطن أن هناك أمرا سيحدث بعد ليلة العشرين.

شيئ له أهميته في حياته سيكون شيئا ما وسيعيش حياة ما، لكنه لا يجزم أنه في ذهوله سيفيق بعد تلك الليلة أم لا، لكن الغثيان الذي يلفه في غشاوة بيضاء تجعله ينزف كل أسرار الوجود ولا يبقي شيئا، أصوات تأتيه من البعيد كلما توغل في الغشاوة غشيه موج من ذكريات جده الأكبر، كيف وجد مبتسما بميتة وصفت بالغريبة وسط غابات السافانا دون أن تنهشه الوحوش، بقي حتى اختفى تماما عن الوجود.

أباه بعد بحث طويل وجد في كتلة جليدية فوق جبال الهملايا وأخبار يعجزه تصديقها عن الكثيرين من أفراد أسرته الذين قضوا في أماكن مفزعة، كلهم رسمت على وجوههم وشم غريب مرجانة شرسة وابتسامتهم لم تغادر محياهم مع إغماضة خافتة في العينين، أين ما كان لهم؟، لما خلّوه

وراحوا في سبات لا صحوة بعده؟، ما لهم قد فارقوا ملذاتها الدنيا حولهم؟، كل الثروات الطائلة التي كانت لهم آلت إليه.

ارتطامه بشيء ما جعله يفيق ولو للحظات من ذهوله، من سكرته، من تيه الذي يمضي فيه بلا رجعة فيه، العشرون من الشهر ميعاده الذي يقدر له ألا ينساه، ميعاد تؤول إليه الثروة الملعونة، كل ما يعرفه ثروات لا تعد ولا تحصى، ستكون ثروة أسرته العريقة له دون أي منافس.

ما يعرفه أنها ستكون له دون أحد سواه بوصفه الوريث الوحيد الذي لا ينافسه أحد، لكنه مشتت حبيس في بحر لجته تلاطم فيه كل وجع يسكنه، وتلك السيمفونية تزيد من قهره تجعله يبتل عرقا باردا يبتلع جوفه، يزحف ليسقط من جديد في دوامة لا يدري إلى أين ستكون نهايتها، ما عليه إلا أن يجمع ما تبقى من رفات في لفافة تسمى العزم ويحتسيها في ما تبقى من ريقه الجاف ليصمد، عليه أن يصمد.

تلك الصدفة التي ما تتوقف عن فتح فمها تجعله يشعر بالتقزز من الجان الذي يسكن فيها، ومن الشياطين التي تتراقص أمامه وتلك الضحكات وخليط الصرخات يفقأ كل إحساس فيه، يجعله قاعا صفصفا، يجعله سفينة غرقت قبل الآلاف السنين وسكنتها وحوش البحر.

ما عليه سوى أن يلقي بتلك الصدفة إلى حيث تتهشم أنيابها فلا تعد توصده في زنزانتها، صخب السيمفونية يصعقه وهو يزحف في الغشاوة، سيصل لا بد له أن يصل استجمع الذكريات المتبقية في مزيج من القار تنزلق في بئر من سواد، يتخبط في العتمة باحثا عن إحداها، فشله يقعيه على نفسه، لكنه مصمم على الوصول ولو في آخر نفس له لتلك الصدفة الملعونة.

-إنها في الوسط تماما. أخذ يتمتم، عليك التركيز مدَّ يديك إلى أقصى ما يمكن أن توصلك إليه، جسدك الثعباني سيطوي كل الوجوم وستنتصر، لا بد لك أن تنتصر، لا تعجل هبوطك في تلك الغشاوة وتنتهي، لقد هبطت

عليه واستكان جسده وقد أمسك تلك المرجانة وأسقطها لينفجر كل شيء، كل محيطاته وبحاره وشطآنه قد أبحر فيه دون أن يوقظه أحد.

الأوركيد

عندما انحنت بجسدها الغض وقبلت وجنتيه، وبان له من فتنتها ما قد جرفه بتيار ما يسمى الحب، حينها و لأول مرة شعر بتلك الوخزة في جسده، والتي جعلته يتحرق لضمها إلى صدره وطبع مئات من القبلات على جسدها المغتسل بعطر الأوركيد.

لكنه لم يستطع فعل ذلك، ولم يكن بمقدوره الإتيان بأيٍّ مما تمنى لأنها ببساطة تلاشت كتلك الغشاوة التي رآها فيها، وقد قلبت موازين حياته.

لم يعرف أكان وسواس قد أفرز سمومه في حياته؟، فما يستطيع تغير شيء، أم هو على موعد مع قدر ما في زمن لم يعرف تقديره بعد؟، ما كان من حاله سوى الغثيان والشعور بالاشمئزاز واستحال شبحا قابعا في إحدى زوايا حجرته القميئة، التي ضاقت عليه جدرانها مجرجرا رائحة الرطوبة والعفونة لتفوح من جسده، والأسمال البالية معلقة على الجدران العتيقة، التي تفيق كل يوم على شرخ جديد في إحدى واجهاتها، وبصاق العابرين ممن أجبر نفسه على جعلهم يفرزون بلزوجتهم سحابة من ضيق وكآبة على ما تبقى من حياته.

في ظل شجرة الخروب كانت أرجوحته معلقة وتحت ظلها بيتهم الزاهد يسكن بطمأنينة من برد الشتاء وقرِّ الصيف، لم يكن في حساباته من قبل منذ أن توفيت أمه تغيرت موازينه، جليلة ابنة شيخ فتح الله شيخ إحدى الزوايا الناسكة في قريته الململمة الأطراف، هو يعرف أنها ماتت وهي حسرة الرأس تولول وتندب حظها بعد أن استحال ابنها مخاويا للجن، بلا حراك،

بهزال وصفرة وارتجاف في اليدين و بعد أن استنفذت كل التعاويذ والأعمال التي أمنّها إيّاها أخوها عبد المولى وريث الحضرة الناسكة، وذهب كل ما فيها من منقوع أو تبخير أو مرشوش أدراج الريح، بعد أن جعلتها في وسادته في حشوتها من الإسفنج المقطع قطعا صغيرة، وبعد أن وضعتها في جرة المياه خاصته التي ورثتها عن أبيها الزاهد، وفي رقعة بنطاله الذي لا يملك غيره، وعند وطأة قدمه حين دخوله البيت ذي السقف المتدلية منه خيوط الشمس وحفنات المطر وأزيز الريح وأوراق الشجر التائهة وعند السبات.

كل الأعيب الأنواء وغضبها شهده بيته الزاهد عن زينة الدنيا وحرامها كان بعيدا، لم تعد تلك الزائرات إلا مالكات البيت البائس الحال، الذي تنوس إليه بقعة ضئيلة من النور المنسكب من الشمس في ظلة شجرة الخروب المباركة، التي أراح والده رأسه تحتها، لم يكن ليعيبه أي من بؤس حاله ولم يكن ليفكر يوما بتغير حياته التي ألف نسج قصصها، وخيالها المتلون بألوان لم يستطع بعد حفظها، كما يحفظ اليوم الأسود منها والرمادي، لم يكن كأبيه ولم ينبت في نطفه أيّا من مآثره ولا بركته، ما تفتأ أمه تضرب الكف بالكف على ضياع حاله، وتسهب برواية الكثير عن أبيه المبروك، وهو معلق عينيه بفاتورة الزمن المنقضي، لم يكن ليفهم أي شيء سوى كلمة البركة، ولكن الحقيقة التي تيقنها أن أباه رجل فقير له وقار وهيبة وهبه إياهما الله، فكان حضوره مهابا أينما حل.

كل من يتذكره يترحم عليه ويتحسر على أيامه التي لم يشهد أيّا منها، فقد تيتم وهو في بطن أمه، ما قد عرفه وأشبع به أذنيه مجرد قصص تثري عليه طفولته، وتواسيه فيها من بؤس الحال، ولكن بعد أن شهد الجميع بجنونه وخروجه عن مسلكهم في الطاعة والتوبة، تيقن أن ما فعله أباه كان بمحض الصدفة ليس إلا، ضربة الحظ و من يقتنصها وكان والده وهو من أذكى من سمع عنهم، ولكن ما لم يستطع إبصاره وقتئذ هو مقدار جهل أناس قريته وسهولة العبث بفطرتهم وتُسيِّرهم، وإيمانهم بالقوة النورانية وعلم الغيبيات التي تقدست بصورة بشرية، ما كان يرتسم على وجهه الطويل من ابتسامة فخر بأن أباه رجل مبروك، وهو ابن ذلك المبروك، لم

يكن ليفرح به حين نضج وتفتحت أمامه صفحات كثيرة أهمها: أن ابن المبروك هذا مجرد حشرة صغيرة ليس لها قيمة ولا جذور.

تلك الرواية التي حفظها عن ظهر قلب والتي لا تملُّ أمه عن روايتها كلما مرَّ خياله كفأر هارب، وكأنها ترنيمة تتغنى بها، بركة والده التي حلت على أهل القرية، وكيف كافئه والدها شيخ الحضرة الناسكة بتزويجه ابنته الوحيدة.

عندما كانت تشرع أشرعتها لتبحر في عالم لا تفارقه الأكاذيب، كان في عالم آخر يناقضه تماما، فلم يكن من المعقول أن يستطيع أبوه حمل تلك الصخرة العملاقة، ناهيك عن أن زمن المعجزات قد انتهى، فلم تكن ضربة أبيه بالعصا على مكانها سببا منطقيا لتفجر الماء ليجري كأفعى عرفت طريقها لتعبر القرية بتؤدة، لقد كان الحظ والعقل مجتمعين بلا شك، وقد أجاد أبوه ارتداء ثوب الناسك لسنوات لم تكن بالطويلة ليقرر أن يموت لأنه لم يخش الموت يوما، وبعد أن زعم في حياته أن ملك الموت يأتيه كل ليلة ويروي له قصص الذين خشوا الموت فجاءهم من حيث لا يعلمون، جاءه الموت أخيرا بإرادته، فهو مبروك والمبروك منصَّل من العذاب لمحبة من الله أنزلها عليه في الدنيا.

لم يكن ليريح دماغه الصغير الذي هو أشبه بدماغ نملة لم تعرف طريقها لتلتصق بحبة حلوى بعد، كما كانت أمه تزعق فيه ليطيل المكوث أمامها وهي تبحر في عالم من الذكريات الزاهدة، كان هو يبحر بأنفه الصغير باحثا عن تلك العصا، حتى تمكن من إيجادها في الصندوق الخشبي المزخرف بنقوش مذهبة، هو يذكر أول مرة حاول فيها فتحه وهو صغير، فقد كادت أن تكسر يده وانهارت أمه حينها بالبكاء لا على بكاءه بل لحنينها لأمها الطيبة التي أورثتها هذا الصندوق الخشبي الذي ورثته بدورها عن أمها، عندما فتح الصندوق وجده مليئا بحاجات النساء من صباغ وعطور وحليٍّ، أحمرّ وجهه خجلا لاقتحامه سكينة الذكريات العذبة التي تحتفظ بها كل امرأة، لكن كل هذا يضيع هباء أمام تصميمه على إيجادها.

- هاهي بالتأكيد. يقرُّ بداخله فرحا يقلبها بين أصابعه، عصا مزخرفة ذات لون خشبي محروق أطال النظر فيها وهاهي الحقيقة أمامه، خدوش عميقة وفقدان جزء من قاعدتها، هذا ما يفسر الأمر جلَّه أمامه، فلم يكن والده بذلك الجبار الذي يطيح بالصخور كريشة نعام بل كان متفتح الذكاء، وبذلك استحق لقب المبروك، المبروك الذي يحج إليه أهل القرية بالقرابين والهدايا، فيقرأ على من تريد أن تحبل وعلى من تأخر عنها الزواج، وبعد أيام قليلة تحبل تلك ويقام عرس للأخرى، لا يدري تفسير ذلك بالتحديد لكن ربما يكون والده مبروكا كما يقولون، وهذه إن كانت حقيقة أم ضربا من الخيال فلن تغير في أمر بؤسه شيئا، ما كان يشغله عن هراء الصبية الذين يساومون السخرية ليل نهار، ولا أؤلئك الذين نمت أجسادهم وخلفوا وراءهم عقولا ضحلة، وبجانبها كيس من الخيش وقد تربعت على إحدى زواياه زهرة الأوركيد.

لم يتذكر يوما اسم أبيه حتى عندما درس في مدرسة الجبل، وهاهو اليوم يدرس فيها، لم عساه يفعل؟، أن يهتم باسم لم يورثه غير البؤس بمسمى زهد، والجميع حوله زاهدون لكن بصور أكثر بذخا وثراء، ميراثه من بيت قد تساقطت أوراقه وتخاريفه.

وفي هذه المدرسة لم يرث أبناؤها من العفاريت سوى نسبهم إلى بيت فلان وفلان، فلم يؤمنوا بحقيقة أن يبحثوا عن حقيقتهم بعيدا عن تلك الجذور، التي جعلت فرشتها على السطح قبالة غضب الطبيعة كما منحته تقاديره ذلك بسخاء، ما كان يرمي بصره إليه ويقنعه بالصبر، أنه بعيد عن كل الكوارث، عن كل ما يحيط به من خوف، فتلك الجبال الأربعة التي تتوسطها مدرسته، امتدت لتطامن السماء وضربت سياجا منيعا، كل جبل منها قد تعلق بحكاية من بطون الخوف وخرافات الفزع، ما كان يلقي نظره إليه أبعد من تلك الأربعة، إلى ذلك الطريق الضيق الذي تغطيه أشجار العليق الشائكة إلى الطريق الذي انتهت إلى أعماقه وداد فلم تبن من بعد ذلك اليوم، حين رآها قد خاضت الآم المخاض، صرخاتها، عويلها ترسم المياه الجارية دوامة غاضبة، و بصمت تهز إليها بجذع النخلة فتتقافز

الحجارة من جسدها وهي تصرخ كالذبيح من الألم، لقد ولدت وداد حصى الطريق والسناسل القديمة، ونثرتها في النهر ليتلقفها البحر وتروي له قصتها وحزنها بعد أجنة تذبح في رحمها، فلا تلد إلا عذاب تسعة أشهر، بدت وقد انزلق بطنها من أجنة ميتة، الحزن لا يكفيها ولا ترقية عبد المولى، لقد جنت وداد وذابت وراء شجر العليق، ليته يتوه هو الآخر لينسى كل ما فاته من حظ عاثر، لم يكن ليحمل نعش البركة مذ ولد.

أشعة الشمس الباردة تلفه في كانون، عندما تتجمد كل الأوراق التي يحملها في كيس الخيش وقد أعادت والدته له الحياة بعد أن مات والده بأعوام، كان لا يخشى ضحكات الفتيان، وكأن قدرا ما قد جمعه وزهرة الأوركيد التي خيطت على إحدى زواياه، روت له أمه بعد ذهوله بها حكايتها مع والده، لم تمهله السنوات ليكمل روايتها في منامه وفي شروده بتلك اللغة العجيبة، لولا أنها غرفت من كل تمتمة وكلمة الكثير، لتلملم القصة، فالحب لها لغات وألوان لا يفهمها إلا من يحب، وهي أدركت بذكائها أن قصة حب نمت بينه وبين تلك الحورية وإن لم يكن حبا فهو سحر أو تعويذه، أو أي شيء قد تلبسه وجعله مبروكا، ذهبت جهود عبد المولى في صنع ما يفك السحر سدى، ولم ينفعه سوى سحر يحكم المبروك وجليلة بسوار أبدي الذي لم يقرره أيٍ منهم، هذا ما كان يهمس به في أذنها، ما كانت لتخطئ أو أن تزل عن السطر.

فقد كانت حينذاك عقارب الزمن قد ألهبت جسده ليفيق على حرارة تلسعه، عندما فتح عينيه تلقفته أشعة الشمس، أغمضهما وهو يحاول بفركهما ببطن راحتيه أن يرى بوضوح، اعتدل في جلسته فتح عينيه، تفقد جسده فوجده غير ما كان، ملابسه منزوعة عنه، تذكر خيالات في السراب ترسل شعرها وتدندن بموسيقى جميلة، استيقظ وبجانبه قرص به ماء اغتسل به ضوء القمر، طفق يبحث في المكان بعينيه ما أدرك سوى اللاشيء، حينها جلس واستكان، يدثر نفسه بالضوء المنسدل كشعر غجرية تتراقص على وهج النار، ينبوع دافئ وزهرة الأوركيد قد نمت إلى جانبه، داعبها وخزته قشعريرة، شعر أنها جسد يضمر يرتعش، ضحكة جعلته يغيب

بجمود دماءه، جن جنونه لما جنى الليل وتدثر بعباءته، وجعل يمرر أمامه كل جنون لا يمنحه النوم بسلام، لكن سلطانه أعظم من فنون الجنون كلها.

لبث على حاله حتى أنار الليل بنور ما يدري من أين جاء، وبين المنام والواقع مرت الجميلة من أمامه بجسدها البض وشعرها الذهبي يغطيها حتى أخمص قدميها، جعلت تداعب قيثارتها وتنثر عطر الأوركيد وهي تغني بصوتها الشجي أعذب الألحان، عندما اقتربت لتقبله فتح عينيه فرآها كما لو أنه ما رأى امرأة من قبل، بل وأجمل من حوريات الأساطير، جسدها إلى الخصر ملتصق بحراشف سمكة زمردية، جمالها أذاب قلبه المنحوت من جبص وحرك كل حواسه وشجونه، بل وقلب الروح على الجسد ليرقص القلب على اشتعال الاثنين، يقسم أنها ناولته تلك الحقيبة وطلبت منه أن يعطيها للملك الغائب، لم يفهم ما تريد، وعندما همَّ بأن يحدثها تلاشت كأن لم تكن، ذابت أمامه مع السراب، وغاص الليل بغيمة بيضاء غاب بعدها عن الوجود، عندما استيقظ لم يجد سوى ما اعتاد عليه من نهاره، حاله كما هي ملابسه، قواريره في حقيبته.

لم يدر أكان الواقع ما يحاكيه أم خياله أم وهم اعترى سكينته!، أفاق وهو يقسم أن أمرا كهذا قد حدث أعاد له جنونه، بحثه في المكان، لكنه لم يجد غير ضوء القمر قد لف حول الأوركيد بهالة من نور، استسلم مقرا بأنه جنون الوحدة، عندما غلبه النوم لم يحلم بها ولا بأي شيء، استيقظ على دفء الشمس وبقربه حقيبة على إحدى زواياها رسم الأوركيد، حزم ما تبقى لديه من عقل وضع ماء الحياة في قارورة، ثم أخذ يبحث في الأدغال عن مهرب منها، حتى وجد ذلك الطريق المغطى بنبات العليق ومر منه ليجد هذه القرية المسالمة.

لم يكن أحد يعرف تلك الأسطورة على نحو أكيد، لكن كبار السن رووا ما يحفظونه: أن ابنة ملك البحر ألحت على والدها ملك البحار السبع، أن يجعلها ترى النور لتجمع القليل من زبد البحر، لم يستجب الملك لمطلبها لكن مرض أختها وإقرار الأطباء بأن زبد البحر الذي يفيض عند الشواطئ

يوم اكتمال القمر هو الدواء، رضخ الملك لرغبتها ولكنه نبهها إلى ضرورة عودتها على عجل وتعود بالزبد، لم يكن يدري أن مدا عظيما كان يمر بالشطآن حينها، لترفعها أمواج البحر والتي غدت به كالطود العظيم.

ليروى أنه لم يشهد أعظم منه ليطامن الجبال، فارتفعت الحورية مع الأمواج لتسحبها إلى الجبال حيث انحسرت المياه عنها بعد حين، وبقيت بجسدها الغض تتقلب على ترابه ساعات طويلة، حتى يقال: بأن دموعها التي لم تتوقف ثلاث ليال هي من فجرت ينبوعا دافئا من باطن الأرض، وعاشت الحورية هناك مئات السنين، ولكنها كانت تتحول إلى زهرة أوركيد في النهار وكلما مرَّ بالمكان بشر، وإذا ما أتى الليل ارتدت مع السراب عباءتها كحورية، ويقال أيضا: أن القمر قد جعل لها مخرجا، بأن ملكا شابا سيأتي بعد مئة عام ليحررها، لكن لا أحد يدري من هو ذلك الملك الشاب.

السماء تميل إلى اكتسائها باللون الأرجواني وأغاريد العصافير غدت بعيدة تطّوف بالطرقات تحت آخر ضوء منبعث من الحمرة القانية للشمس الباردة، يحمل بين يديه حفنة من الأمل بجسده الهزيل، يندس تحت معطفه الأسود وقد هزمته إهتراءات فيه، لتتراءى له من بعيد أضواء فوانيس القرية المذيبة لأستار الظلام.

دار برأسه ألف سؤال: عن الذين مروا.

يتأمل الطريق الطويل صورة المدرسة بين الجبال الأربع، لم كان على المدرسة أن تشيّد في هذا العلو الشاهق البعيد عن أطراف القرية؟، يهز رأسه وكأنه تذكر: لم سميت بمدرسة الأسقف ميخائيل؟!، وقد ترامت أطراف القرية على جامع النساك وساحات التفكر والسمر لساعات طويلة، انزوى بنفسه في حجرته الدافئة بعيدا عن برودة الطقوس نبذه خاله عبد المولى وأسرَّ لأخته: أن بابنها مس من الشيطان، ولا بد من إخراجه بطرق هو يعلم مدى نجاحها.

لكن حزنها الشديد عليه ورقة قلبها جعلتها تهون الأمر، بأنه مازال جاهلا صغيرا لا يعي ما يفعله وأن عليهم الصبر.

يخرج خاله وهو ينفث من منخريه اللهيب ومحوقلا من إهمال أخته وجنون ولدها، وتبقى في ذهن الصبي الصغير صورة رقية وأنينها يعلو تارة ويخفت أخرى فلا تستطيع النواح حتى استسلمت لرداء الموت بغيابها عن الوعي، اجتمعت القرية على صراخها يوم كانت تغسل الصوف بقدميها، تتقافز كغزال ممشوق وهي ترفع عن ساقيها البيضاوين، يجلس يرقبها بعيدا عند أبيها الحداد إسماعيل وهو يفهمه فن الحدادة وإشعال النار، وهو لا يدري بأن النار قد تفجرت في قلبه ولا شيء يطفئها، أول وخزات الحب كانت تتقوس من الأنين.

بينهما فارق كبير ابنة الحداد إسماعيل وهو ابن المبروك، الذي يجهله ك اسمه بين البؤس والشقاء بعنوان الزهد، ورقية يتقاطر من بشرتها البيضاء ووجهها الدائري وعينين كليل شجر العليق، السراب يجمعه وإياها في أحلام هي الأخرى متعثرة.

عندما صرخت أيقظته من بين الشعلة الملتهبة وحمى الطرق، ليلتهمه الجزع فلا يدري إلى أين الذهاب؟؟، ليسعفها بقلبه أم ينتظر شرود الآخرين، ليبقى وحده المنتصر لكن الواقف على الضفة منتظرا طوق النجاة لن يأتيه مهما انتظر، لأن كثيرا من الأنهار يقطعها المرء سباحة والقليل منها يعبرها على قدمين، يقترب ببطء من القدم الغارقة باللون الأحمر بين الصوف و الماء، ما بين البيت الحجري والنهر طريق مكسوة باللون الأحمر، أمسك والدها بقدمها غسلها بماء النهر وخيط رفيع هارب من اللون الأحمر، ربطها بشاش أبيض وأحكم رباطها والطفلة تنتفض، شربة من منقوع رجل الحمامة تتجرعه في فمها المفتوح برخاوة وشفتيها الغضتين بدتا بيضاوين حيث يسيل المنقوع من حوافهما، يسارع عبد المولى ليدخل البيت ومعه القراء يرمقه بطرف عينه مستعيذا بالله، ليال طويلة والأنين موشح يطوف القرية والجبل وسفحه والوديان، لم تجد الآيات نفعا ولا الأناشيد، لأن الطب سيد الإيمان بالله والقدم تفوح منها ريح نتنة والزرقة ارتسمت على جسدها وخيل للجميع أن نهارا لن تفيق فيه على صياح ديكته وكل منهم يحضر لخطاب يواسي فيه الأب القتيل، الذي صار البيت له نار جهنم

تلسعه فيبترد إلى النهر يجالسه ليل نهار. الأم تنزوي إلى الرأس المحموم والجسد المنتفض وهي تدثره بدموعها، وعيناها لم ترق دماؤها من ذلك اليوم، حتى مر ذلك الغريب بقرب النهر ممتطيا حماره ترجل وقد ألقى التحية على الجالس على كرسيه كتمثال من جبص تنحته الريح، وقد تواطأت معه المياه الغاضبة لتشكله رجلا آخر أو كيانا شاحبا افترسته ظلمة النفس وسراديبها، بشربة ماء يجرع حماره منها الماء بلا استئذان، يرفع يديه شاكرا الرب على عطاءه، يقترب من التمثال يسأله مبيتا لليلته وطعاما، بآهات طويلة يدعوه للدخول، صامتا يتبعه الرجل يربط الحمار إلى العشب حيث يرتع حتى إذا أنهكه التعب غط بالنوم، والرجل يرتوي من الماء يقبض عينيه إلى الصحن أمامه فلا يمده إلى أركان البيت، وتصل إليه رائحة النتانة والأنين والبحة في الصمت الكئيب فيزيده الأمر فضولا فجعلته يتمرد على آداب المنازل، يمرر نظره إلى الخيط من النور المنسل من السماء الكئيبة على ذلك الجسد الممدد، يفتح حقيبته الجلدية يحمي سكينا في نار الموقد يغطس الخرق بالماء الحار، يكشف عن القدم الغارقة بالموت، بصبر يمسحها بالماء الحار المرة تلو المرة يزيل الرماد الذي يكتم أنفاس الجرح الغائر والورم، بسكينه يسطح الجلد الميت ويلقيه، بدا اللون أكثر نقاء كلما تعمق إلى الداخل يعيد غسله بالماء الحار، يحكم تجفيفها من قواريره يخلط الألوان ويصبها على القدم المعراة من الجلد الميت بمسحوق أبيض، يغرقها ثم يحكم الضمادة، يقترب من الرأس يرفعه إليه يفتح الفم ويجرعه قارورة من لون أحمر، يركع على قدميه ويضم يديه إلى صدره وهو ملق الرأس بخشوع يدعو دعاء الشقي الهارب من الموت إلى الحياة، بين يدي الرب يمضي ليلته على حاله كل أغمض عينيه ليستسلم إلى ميعاد الموت، وفي الوجوم والدهشة غرقا معه في الصلاة كل حسب طريقته.

في الخارج كل شيء كان مرتب لجنازة تليق بابنة الحداد، أشعة الشمس الدافئة تداعب الصغيرة وتتأوه، تفيق ثم تفتح عينيها بصمت وتتحرك شفتاها: أمي شربة ماء. تفيق الأم من ذهولها، وينهب الأب المسافة الطويلة بين القلب والجسد، يستيقظ الرجل من ملكوته تساعد الأم ابنتها لتعتدل في السرير.

عادت الوجوه الشاحبة إلى حيث انقشعت غمامة القبور ومساكن الأغراب، وهي لا تصدق أن يُبعث الموتى من القبور.

مرت شهور اتبعتها شهور وعادت ابنه الحداد إلى سابق عهدها، أعين أهل القرية بريبة تنظر إلى الرجل.

- إنه الأسقف ميخائيل. ينطق الحداد إسماعيل و نظرات الشك والريبة تسيَّدت المشهد، عبد المولى ينطق بقسوة: لم يعد مرحب بك، سر إلى حيث أردت الذهاب. لكن الحداد إسماعيل يشير إلى الأسقف بالجلوس ويشكره على شفاءه ابنته ويطلب إليه إن يقبل بناء مدرسة باسمه يعلم فيها الفتيان الطب والاستشفاء، لم تتباعد الشهور كثيرا حتى وقفت المدرسة على قدميها بين الجبال، كما طلب الأسقف لكي تغتسل بهواء نظيف وتلفحها الشمس صيف شتاء. وهكذا تتلمذ في الكيمياء على يديه وكيفية إنقاذ الأرواح، لم يعجب عبد المولى والكثيرين بأن يتعلم الفتيان فنون الشعوذة، فمنعوا صغارهم من زيارة المدرسة وبعد سنوات فارق الأسقف القرية إلى حيث يصلي في الكنيسة التي سيقطع لها الكثير من البحار والجبال، وعاد السكون إلى القرية غائمة كما السحب التي تغطيها، وهاهو يعلم الكثيرين فنون الكيمياء وعلاج الأمراض والأسقام، لم يكن ليبقي عبد المولى كرهه له في حالة السكون، بل صرحت به كهولته في كل مكان، لم يرق للكثيرين أن يكون المبروك الخارج من الملة بينهم على الرغم من براعته فليبقى في وحدته، الوحدة التي يعيشها بكآبة بعد أن فارقت سيدة الدار كل شيء أسوء وأسوء، لم تكن المدرسة لتعطي راتبا أو مالا أو طعاما بل كانت أقرب للزهد منها للتدريس وهو بحر إبداعه.

لم يكن ليجيد حرفة يستطعم منها، و ما كان يكفيه من مئونته من أحزان شيء يتدثر به أيام الحداد، كل أمر إلى أجل منتهاه فقد انقطعت يد الخير والرفق بموت الحداد إسماعيل وزواج ابنته، الحب الهزيل إلى أحد ولاة الحضرة الذين يعيشون على نهر متدفق.

ولم يعد الفتيان شيئا فشيئا ينظرون إليه إلا ابنا للمبروك وحسب، والنظرات الضاحكة لا تراوح الطرقات، لم تعد الريح وأشعة الشمس والأنواء لتعني الجسد العليل شيء، فجاء الكثير من الراغبين في السكن مقابل بضع قروش، موافقته التعسة عليلة بالخطايا.

ورق اللعب والسائل الأحمر الذي يتأرجح في الزجاجات كان بداية لكثير من المناوشات، الكلام مع هؤلاء لا يفيد لكن الروح الظمآنة إلى الهدئة مازالت مسجونة، آخر ليلة في البيت العتيق وآخر طلة على شجرة الخروب، ويترك لهم ميراثه ويهرب باحثا عنها تلك التي طبعت صورتها في ذاكرته، يقسم أنه لمسها بيديه لكنها غادرته مع الغشاوة على عينيه، لتذره مع مفردات الجنون وجمله...

السكون يلف القرية وبيته مضطرب بالضحكات، خطواته الوئيدة إلى البيت الغارق بالآثام لن يطلب أكثر من لملمة أغراضه، ذكرياته والهروب وراء جنونه، لن يكفيه نظرة أهل قريته الشزراء ولا إعراض أقاربه وأبناء عمومته، لن يكفيه السراب الذي بناه حول الحب وأشكاله، هو ماض قد مضى وحاضر محترق بالسراب، بالجنون، باللوعة والحسرة، مجتمعة كلها في آن واحد، ماله ومالهم فليحترقوا في جهنم بدل المرة مرات، لم يعد له فيها ما يحمي نزعة الفراق لديه، فالملح الأجاج والماء العذب لا يطفآن مرارة كبده، سلاسل الأحزان تطوق أضلاعه الواهنة، تجلّد بصفحة وجه صامتة لا تبين وراءها الجزع، من تلك الأجساد التي اغتالت خلوته، ونهبت عش ذكرياته، وهن زهده وكبرياءه وسرقت ميراثه، لم يبق له ما يأخذه غير تلك العصا المبروكة وبعض من ذكريات أمه أمام باب الدار، فرج بين ساقيه وأحكم قبضته وتلا آيات ربانية حفظها في قلبه سرا رغما عن تكفيره ونبذه في العراء، بين الضحكات والضوضاء والسكون مفارقات زمنية، وبين التفكر واحترام الذات و فصول التخلف والرجعية وقد اشرئب العقل على الخرافات، وفي الوجدان استشرى مرض اليأس، لاحقته أنظارهم وهم يمثلون قوة غلظتهم، كمن راهن على عاهرة وسلبها غيره، لن يستطيع أحد الرهان على جنون العقل ووقاره فشعرة واحدة تفصل بينهما، وسيكون

الجسد الخائر كثور هائج عندما تطعنه في لب كبرياءه، وهاهو عود الثقاب، لم يكن الصندوق مغلقا ولم تكن أرديّة الأم الفاضلة إلا منتشرة على الأرائك البائسة وفي كل مكان، نظرة واحدة منه تطلع على خبايا عالمه في شعلة سجائرهم، عصا والده المبروكة على طاولة القمار، يستعيد جنون كل الماضي رغبته العميقة في الثوران، في الغليان، في تدمير الحاضر على رؤوس ساكنيه وزنادقته، يغلي على مرجل إلى حد الثأر والشرب من الدماء ومضغ اللحم وتفله، إن مزجا ثنائيا بين أول وثاني أكسيد الكربون كفيل بأن يقتل من تسول له نفسه الاتجار بالدين والعرض والنور الرباني، بموت بعيد عن الرحمة بلا رؤية لملك الموت، كانت كل النظرات القبيحة في الوجوه نيران تتأجج لتقلب الطاولة، لغضبه فواتير على الجميع دفع ثمنها غاليا، من نار جهنم استقى انقضاضه عليهم كالثور بدءا بزعيمهم، معركة ضارية ينشب كل منهما معوله في الأخر، أمسك تلك العصا المبروكة التي فجرت النهر في قريتهم، ولفها في الهواء ليغرسها بجزئها المثلوم في قلب النمرود، لتعيد الحق لنصابه، أغلق متنفس ذلك القلب وهو يجأر، ليرتطم جسده بكل ما حوله ويسقط صريعا بلا حول منه ولا قوة، فحيث هناك خير هناك شر وحيثما ينبت الورد تنبت الأشواك ولا تمد الحياة يدها لمن يبقي نظره إلى الأسفل وعقله متعلق باللاشيء.

لم تنفعه صلوات أمه ولا دعائها، لم تنفعه مخاوفه وجزعه، ولا أعين أهل القرية الشزراء، ولم تنفعه أي ذكرى من ذكريات الماضي، ولا ينفع الدواء بعد تفشي الداء فالبتر يكون فيه الخلاص وإنقاذ لما بقي من إنسانية في قلبه الصبور، بأن يلف عباءة الماضي وينطلق تحت جنح الظلام إلى حيث يرى زهرة الأوركيد ويلبي نداء الحب في قلبه، الطريق الطويل يحفظها عن ظهر قلب.

ولم عساه يتوقف ليتزود من جنون ما خلفه من دماء؟، لحظة واحدة تكفيه لأن يعيد أشرطة الماضي والحاضر ويرصد المستقبل، ليستدرك مما فاته، أنفاسه، غليانه، سقوطه بين براثن الشيطان، لعنة عبد المولى تحققت، بل وأصبح جزءا منها حتى يضع نهاية لحياته الكئيبة، آن الأوان

ليملأ الكون بصرخته المرعبة، فليس من سننه تجرع الصمت على مضض رغم طول صبره وصيامه، فإيمانه بأن يصنع لنفسه شيئا بعيدا عن مظلة المعتقدات البالية بترنيمة من الارتباط الروحي مع الله، ليجد حلمه الضائع وينهي تلك الأسطورة، مضى طافقا بين أشجار العليق المتراصة بأشواكها والليل قد حجب نور القمر، وأي نور لديه ليتبعه وما لديه من أقباس؟، لولا ذلك النداء في أذنيه ينير له موطئ قدميه، وخناجر من تحت قدميه تثعب فيهما الدماء، أسماله البالية، معطفه المهترئ، لحمه وقد نهشته الأشواك ومازال عنده تصميم بأن يجدها.

لم يكن ليفكر أن الأرواح الضالة لا تموت قبل أن تقتل قاتلها وتشرب من دمه، كانت هذه سنة الذين ينسجون الأساطير من المارقين على قريتهم ذات السبعة أبواب، وهذه الروح الشيطانية نهضت من موتها لتلاحقه لتدركه في وحشة الظلمة وقسوتها من الزمن لتتوقف عقاربه وتنتشله من بين يدي تلك الروح المتمردة، وهو بين الجنون والجنون تنهشه براثن وتحمله أنامل، كم من المشاعل سيحمل الظلام لينير الكون بالنهاية!، فلكل نهاية وهو ممسك بخيطها، لم يدر كم من الوقت مضى قبل أن يهبط إلى حيث نور القمر يصافح الخيالات على سطح الينبوع الرقراق هناك، رآها وهي تدعوه إليها وزهرة الأوركيد تلف المكان بعطرها، عندما انحنى أمامها كهالة من نور لم تجعله يفارق بعينيه عينيها، لم يدر أكانت إفاقته والضحكات كترنيمة في أذنيه، حيث ظن أنه سيفيق على ملك لا يفنى وحب يملأ القلوب وظنت هي أنها يوما ستعود على يدي الملك الهارب، ستكون الحقيقة مشوبة بالكثير من التفاصيل التي لم يعرفا عنها سوى أنهما معا فليتحقق بعدها ما هو كائن، دون أن يعكر سباتهما مئة أو اثنتين أو أي عدد من السنين كان، لا يهمه أي من مصائب الدنيا طالما غنت له في المنام ونامت في وإياه في سبات لن يصحو منه أي منهما..

يقال: أنه بعد حين من الزمن رأى الكثيرون وهجا ذهبيا في البحر، يقسم البعض: على أنه قلعة من الذهب، والبعض الآخر: أيقن أن كل من الحورية والفتى قد التقيا معا في عالم ما.

اللعبة الأسهل

في لعبة الحرب دوما هناك خاسر، وفي اللعبة ذاتها يحق للمنتصر أن يدون كل شيء بلغته ووجهة نظره ومن حقه أن يستخدم ما يشاء من أسلحة محرمة، لأن الحرب لا شريعة لها ولا قوانين، فهي اعتداء صريح على حياة إنسان مسالم أعزل والسيطرة على مساحات من الأرض بطور جديد من الاغتصاب...وبين الضدين أضداد كثيرة وتجار كثر ممن تصيدوا بشاعة الغلاء وساقوا الثراء إلى جيوبهم سبايا، ومنهم من طحنوا مع الاستسلام أنهم القاعدة التي لا تشكل تغيرا. هؤلاء اخترموا الحياة بأوضع صورها في سعيهم وراء قسوتها، الحصول على لقمة عيش طافحة بالهوان هي همٌّ عبد المتولي جابر، فتراه يجر أسماله البالية ليلملم الأوراق المبعثرة في الطرقات وما تبقى من هزائم الأرواح.

رغم القصف، رغم شبح الموت، رغم البلاء والهاربين على جناح الخوف وبكاء الثكالى، وبقي البلاء والأمطار العنقودية سيدا الطرقات الخالية من أناسها والبيوت الخاوية على عروشها، كم هشة غدت وهي تتكوم في مدينة الأشباح هذه!!، ورغم كل ما يخز جسده من تراشق من نيران هنا وهناك ورغم الأشواك النابتة في وجهه وشبحه الماشي على ساقين تهزهما قشعريرة الجوع والخوف ليرتاب به كل من يراه، هم ينكرونه رغم أنهم يعرفونه حق المعرفة، فتراهم يروجون لخوفهم من مسخه الذي استقام عليه أمدا مع طائفة الأموات، الذين يرتادون المقابر لما تبقى من حياتهم الضحلة وأنه قد أحل زواج الموتى ولكم أمتعه إتمام إبقاءهم.

- يا مدينة الموتى ما لكم تقتلون الحي بشبهة الميت وأنتم تفرون وإياه من الموت؟؟. يتفل بصاقه ذا الصفرة الداكنة ويمسح بطرف جلبابه الممزق ما تبقى من زغب أسود حول شفتيه ذات اللون البني الداكن، ولكنهم يعرفونه

تماما فلم قد صورت لهم أعينهم المترفة غيره رغم أنهم يعيشون في نفس الضنك وتحت وابل القصف وترهات الموت الجماعي وأكياس القمامة المنهوبة من الأفواه الجائعة؟، لم ينكرون حقه في إبقاءهم في الصعيد الآمن من الطاعون؟؟

لم يتغير فما زالت صورته كما هي منذ سنوات بعيدة، قد أنهكه حسابها في الفقر والجوع والحرمان، جسده الذي ضمر كل بروز له وأخفق منكباه المهزوزان بتعديل صورتهما المقوسة، ويزيده بشاعة ظهره المحدودب، يلملم الخرافات والأحذية الممزقة بما تبقى من أشرطتها الملونة باللون الأحمر، لم يعد يذكر أنه بحث عن صاحبها تحت الركام، لقد أصبح كل شيء مألوفا، صور الأشلاء المبتورة تروي قصص البلاء والمزيد من حكايات الدمار.

لم يتغير حاله منذ سنوات وذات الصورة لا تغيبه عن المشهد الدامي، رؤية الموت صارت مألوفة، وكنس ما تبقى من أشلاء بات ما يعتاش منه.

لقنابل المرصوفة بها الطرقات لا تخطئ أحدا والبيوت الآمنة وساكنيها تتصيد ضحكات الأطفال والدمى المحشوة والدفاتر والألوان ومشابك الشعر والقطار الأحمر وسيارة الإسعاف الصغيرة. ولكنها تخطئه على الدوام تبقيه على مقربة منها ليسمع دويها وعزف الثكالى على قيثارة الأحزان حيث لا تغيب الشمس ولا يصبح بعد الليل نهار.

شغله الشاغل أن ينجو بصغيريه وأمينة ليدعهم القدر له وليفيق على صيحة النهار ولو لمرة دون أن يكون محشوا بالعتمة ورائحة الموت، يملأ القوارير الصغيرة برائحة النهار المحشور في زجاجة من بارود ونور الشمس الخافت من بين الغشاوة والعتمة وأنفاسا مما تبقى من هواء مشبع برائحة الأكسيد، كل ما يستطيع حشوه في جيوب جلبابه وحقيبته البالية المصنوعة من خرق، من نور، من هواء، من قمامة لا يعبئ بما يرويه الناس عنه من أساطير، ما همه من تلك الأقاويل شيء، يكفيها أنها تخيف ما تبقى من مارقين في الطرقات الغائبة عن التاريخ، أسطورته المخيفة: أنه يغيب في

الأرض تحت المقابر، أنّى له أن يبصر الحياة، من يقتل صغاره ويحرمهم لذة النظر إلى النور.

- عن أي نور يحاجونه؟، النور الدموي أم النور المشبع برائحة الموتى؟!.

- يا أمة وهبت نفسها إراقة الكبرياء على الأرصفة وفي الطرقات، أما آن لكم أن تخلوه وصغيريه وأمينة.

ولكنه الموت أينما كان فوق الأرض أم تحتها، في المقابر أم خارجها، مدينته لا تمتلك خيارا في أن تهادن القاتل وهي أوهن من بيت عنكبوت دفنه الركام.

رغم أنه جامع قمامة لا غير، يجعلونه شغلهم الشاغل وأعينهم ترصده في السكنة تلو السكنة.

- ما الذي يميز عبد المولى جابر ليكون حديثهم وهمهم؟!، ما يضيرهم جأره في منتصف الليل وصراخه وعويله في جوفه وشدقه للسماء المشحونة بأكسيد قد تجاوز حدود اليأس فلا يمكنهم مجاراته. دعواه: بأن يغير الله حاله من حال إلى حال وأن يرزقه من حيث لا يحتسب.

وعندما تدوي القنابل يكون ميعاد عودته لكي يؤوي مع صغيريه وأمينة في سراديب تحت المقابر التي ضجت بساكنيها، لن تطاله يد الموت ها هنا، عرقه المتصبب على جبينه، أنفاسه المتلاحقة، صوت المعول هو ما يحفظه عن ظهر قلب، وهو من يبحث عن ملجئ في المقابر، إلى أسفلها وأسفلها في سراديب كثيرة عاشها بكل حفنة تراب اخترق جسدها، لم يتوقف ساعة عن الحفر حفره ودوي القنابل يشج سردابه المقهور.

- يا نيران البؤس ما لك وصغيريَّ وأمينة؟، دعيهم لي. يواصل بمعوله وتهرق دموعه ويتبلل كل جسده، طعم الملح والقهر والعبودية مغلفة بالخوف والجزع كان كل ما يملكه.

أمينة وصورتها تحتسي حساء الجوع والخوف مرتعدة أوصالها وجسدها مكسو بأسمال من دماء، من قشور، من لحم محروق، وشعر فاحم، ورائحة الشواء قد اختلطت برائحة الدماء والكفن تحت الركام ينتظر أن تغفو، كما أهل بيتها والجيران والصبايا والمارقين، عقارب الزمن لن تمنحها فرصة أخرى في أن تمتلك بيتا وأسرة وحياة صغيرة كانت يوما تتمناها، كل ما فيها مشوه، جسدها الغض الأبيض مائل للحمرة الداكنة قد بدا، كم مرهما استجداه من مؤنس صاحب الصيدلية المختبئ تحت الصفيح، وذاك الشق الرفيع هو ما يصله مع ما تبقى من أنفاس؟؟، من أجلها يستجدي لبن العصفور، من العصفور المهاجر، من أشرطة البيوت العائمة على بحر من دماء، لقد رضيت به هي من طلبت إليه أن يحضنها، أن يشدها إليه، أن ينقذها من براثن الموت، هو بطلها، هو مخلصها.

هذا المسخ بطل يصول ويجول في مدخل شريانها والقلب موصد على صورتيهما معا، تركت كل ما لها في الدنيا ورضت بالعيش تحت المقابر في غرفة من التراب وعطرها الرطوبة، منتقاة بعناية بعيدا عن أشعة الشمس لصوص الأعمار، الصفرة شيئا فشيئا تمتزج مع حمرتها الداكنة وجلدها المقشور كقشرة السعادة، التي ترتسم فوق محياها بابتسامة خافتة، الديدان تنبش الجدران وخيوط من جذور ما تبقى من أشجار ذاوية تختزن ما تبقى من رتوش الحياة، والضوء من السراج ينوس في فتيله وأخيلة وجودهما غدت أربع.

- كم من السنين مر؟.

- كم من قنابل وصواريخ؟.

- أما آن لطبول الحرب أن تبقر بطونها مع العقارب المتوثبة على جدران الطرقات البائسة، يجلد ما تبقى من ركام وما دفنته العطايا، عطايا الحروب لا يمكن أن يرجع لها صدى غيره دوي القنابل، عن أي نبأ سيتحدثون وعن أي عذاب سيسألون؟.

- لندفن أحياء في معابد الكهنوت خير من بسيطة يعيث الكهنوت فيها فسادا.. تتمتم بصمت، الصفرة أشرئبت في جسدها والصغيران لا تعرف

لهما حياة إلا من نبض يجيء ويروح، مؤنس قد غاب بعيدا في زحام الدمار، في ضجة الحروب لا تعلم خبره، أحيٌّ كان أم ميت أم وزعت أشلاءه بالمجان أينما كان؟، كل المقاييس واحدة أمام جملة اختفاء دفاتر الحساب وكتب العذاب، أيٌّ كان مصيره فقد ذاب وذابت معه دفاتره وبقيت تلك الصفرة سكينا يجترح بدنه فلا ينفث الدماء.

يضيء السراج بفتور في السرداب الطويل حيث تنسل الأرواح لتجالسهم.

- كل يتخذ موقعه. هذا ما تمتم به فؤاد الصغير وهو يشد مئزر أمه أمينة بوهن، ويقهقه عبد المولى وهو يشير إلى السرداب الطويل.

- إن مجالسة الأرواح خير من مجالسة صواريخ توم هوك التي ترطن الإنجليزية.

أمينة تطيل النظر إلى السرداب الطويل وتطرق في تفكير عميق والصفرة تتخلل أنفاسها الواهنة، تمرر نظرها إلى صغيريها بابتسامة فاترة ورجاء عميق وهي تمسح على رأسيهما، سعاد تذوب في طيات الثوب ويروح الصغيران في سبات عميق، تلقي أمينة برأسها على الجدار الترابي.

عبد المولى هو الوحيد فيهم لديه قليل من الهمة، يعدل نيمتهم ويدثرهم بغطاء دافئ، تبين رجل أمينة البيضاء وقد غطتها قشرة محروقة والصفرة تخللت اللونين.

كم مضى من الزمن دون.. ليمضي معها حلما جميلا قطعه نداء المعول وكابوس فقدانهم، يمضي إلى آخر السرداب والقصف قد بدأ معزوفته ذات الرتم الصارخ، ما تكاد تبدأ الطائرات بإلقاء القنابل حتى تتبعها الراجمات بالصواريخ ثم الأسلحة الخفيفة والرشاشات، وهكذا تمضي كل أيامهم، كم تمنى أن تمحق الراجمات وراجميها في آن، أما آن لذاكرة الصحبة والمحبين وورش الصباغة والسباكة أن تطفو فوق بحيرة من واقع مرير؟، الصيدلي مؤنس، الحاجة فتحية ورائحة الفجل والجرجير، كل له من حياته نصيب، تذكرها حينما منحته يوما عشبة تصلح بطن أمينة وحبلت بطنا وبطنين ثم

ذوت ومعوله ما زال يكذب كذبة الطرق على الجدران باحثا عن طريق آخر للنجاة. الحب المجنون لا يعترف بشرائع البشر له طريقته التي لا يشعر به إلا من اجتث من قلبه تلك المضغة السوداء.

لن يتعب معوله من طرق الجدران، ما يريد سوى قليلا من كل شيء، من الشمس، من الهواء، من الحياة لصغيريه، لفؤاد وسعاد و لأمينة، ليمحو تلك الصفرة وتعود لهم الحياة. الأصوات التي تتلو ضربة معوله أشبه بفرقة سليم النجار، الكمنجة والعود والطبلة كلها تعزف ذاته اللحن في قهوة رشوان المسحوقة تحت الأنقاض، وأصوات معوله أشبه بفرقة من مئة أو مئتين، يرجع السمع ثانية وثالثة، يطيل النظر الثاقب فيما تبقى من فسحة من نور.

يتمتم: استعيذ بالله من الشياطين، اللهم جند لي ملائكتك. يرجع الأمل إلى نفسه من بركة الدعاء، ملائكة بدر تصف صفا حاملة الرحمة. يبدأ بأغنية نسيها ثم يرتل آيات حفظها، السكينة تستقيم معها نفسه، هو لا يدري لم امتدت يد الخوف إلى حلقه لتسحب قلبه وتلقي به في العراء عاريا من كل شيء؟، لا يدري أكان الوهم ما رآه أم غشاوة ألقت أستارها على عينين ذابلتين؟، هو يراهم مصطفين من حوله بالعشرات وراء بعضهم البعض في خط أفقي. يطول ثم يستطيل، ما يستطيع أن يميز شيئا بعد أن أنطفئ ضوء السراج والليل والنهار هاهنا سواء، أصواتهم وصلت إلى مسامعه، كابد نفسه الشقية على ما لا يطيق، على أن لا يسمعها لكن دون جدوى وصلت إلى أذنيه محفوفة بشجونه وخوفه معا، وحيدا مجردا من غيره المعول بلا دفاتر ولا أرقام ولا مهام ولا أسمال بالية بلا أمينة والصغيرين، عبد المولى جابر وقف بين كفي المجهول ذاته الذي يقف يوميا بين يديه.

- نحن نريدك معنا.

حبات العرق تصفدت فوق جبينه وتبلل جسده، رعشة خدرته وألجمت لسانه ثم خرَّ صريعا دون أن يفقه شيئا، أكان النهار أم الليل الذي تغشاه

كما تغشى النوم الصغيرين وأمينة؟، لا فرق فأمينة توقظه ليملأ خرقته بالقمامة وتلك القوارير، ستعمُّ السعادة يوما ما، ربما غدا أو بعد غد ويعيش ليلته مع أمينة والصغيرين، ليلة كانت أم اثنتين، هز رأسه بعينين زائغتين لما لم توقظه أمينة؟، لمَ لم يسمع عويل الصغيرين؟، لم لم يشتم رائحة الشاي؟.

ربما رقدت بعد أن ظنت أنه قد خرج إلى السطح، لكنها وإن رقدت فلن يرقد الصغيران، زحف على قدمين لم يستطع إطلاقهما للهواء، ناداها بضعف: أمينة.

أنصت وقلبه يخرج من فمه، كم بعدت عليه الشقة وأمينة؟.

يصرخ: أمينة ردي عليّ، فؤاد، سعاد ردا.

كم من الوقت مر وصوته يخفت، يبتلعه شبح الخوف؟، النور المتبقي يضيء على رقدتهم الأبدية، يمد يديه المرتعشتين، يهزهما فلا يستيقظ منهم أحد، رائحة خلوتهم مع الموت أيقظت لديه رائحة الموت فوق المقابر، أطلق زفيره ليطفئ السراج، ويرقد متمددا إلى جانب أمينة، يضمها والصغيرين.

يتمتم: لا تخشوا شيئا، أرقدوا بأمان، سنستيقظ غدا دون قنابل ولا صواريخ ولا رائحة البارود في اللعبة الأسهل.

الخلع الأبدي

قد نحتار في بداية رواية ما فعجلة الكلمات تتصارع وتتناحر فيما بينها ليسقط قتيلا أشدها إيلاما ولكن رواية الحياة أبسط بكثير، لا تستنزف وقتا طويلا في اختيار البداية ولا تتعجل في النهاية أحداثها، دوما تأتي على عجالة حيث لا يستطيع شخوصها حفظ أدوارهم فيبحرون في عالمهم بطلاقة دون نصوص.

وإن قدر لفاضل جبران أن تستولي عليه الحياة بكافة نصوصها دون أن تكون له يد في رفضها أو تغييرها، ولكن من السخف أن يلقي اللوم على تلك الأحداث النشاز التي تؤويه إلى مخدعه باكيا، لعنة القدر وأسطورته باتت أمرا روتينيا نزقا لفاضل جبران.

في كل فصل من فصول حياته لم يكن له الاختيار حتى في أبسط أمور حياته ولون حذاءه أو جواربه، رغم أنه لم يكن يوما يحب الحذاء ذي المربعات البيضاء والسوداء كلوحة الشطرنج لكنه كان مواظبا على ارتداءه. كراهيته للأضداد رغم أنه يعيشها بكافة تفاصيلها أمر لا يعني أحدا غيره، وحيث أنه رغم كرهه لحذائه لم يتجرأ يوما على تغيره فقد قنع بأنه مسيّر في مصيره، حيث لا يملك حق الاختيار، ومع مرور الزمن أصبحت حياته كلها مرتبطة بقرارات الآخرين بدءا من تفاصيل حياته الدقيقة ومواعيده الشخصية وانتهاء إلى ما يخرج عن دائرته الضيقة، لون ما يرتديه عليه أن يحصل على علامة متفوقة من المحيطين به ليتم ارتداؤه لكنه فضل أن يختصر الوقت الذي قد يعيقه عن عمله في الدائرة الحكومية، فيترك الأمر

منوطا بهم دون إبداء أي اعتراض، يمكن أن يكون الأمر جميلا ومهذبا في بدايته لكنه عندما يتمدد بأذرعه الأخطبوطية فإنه يصبح ثقيلا، شؤما يجثم على عنقه ليخنقه.

لم يكن أحد ليعرف أن هذا الرجل المفتول العضلات، عريض المنكبين، المرسل شعره الأشقر المجعد حتى كتفيه والمطلق لحيته المتناسقة على صفحة وجهه الأبيض، لدرجة أنه لا يملك خيارا في إطلاق لحيته من حلقها.

فاضل جبران صاحب العقود الخمسة قد سلب إرادته مبكرا حتى في قرار ارتباطه بشهناز محمود لم يكن له أن يعلن اعتراضه، وفي نفس الوقت لم يستطع البوح لنبات اللبلاب المتسلق بأنه عاشق لابنة خالته الفاتنة وهيبة، لكنها كما يعلم جميعهم خارجة عن دائرة رضاهم، فأمها رفضت الخنوع لقوانينهم مبكرا وخرجت عن منطقهم في سلب الإرادة، وتزوجت من تحب وأنجبت قدر ما تريد من الصبيان والبنات، وارتدت ما يحلو لها، وضربت بهم وبعجرفتهم عرض الحائط. ليته يمتلك جراءة خالته، ربما حبه ل وهيبة جاء رغبة منه في التحرر في كسر الطوق حول عنقه لينطلق حافي القدمين، مرتديا سروالا ضيقا وقميصا مفتوحا حتى منتصف الصدر لتبين شعرات صدره الشقراء.

خالته التي تزوجت بعد طول انتظار رجلها الذي ملك قلبها وحملت له في قلبها وعينيها كل الود والمحبة كانت بعيدة كل البعد عن شهناز التي لم تحمل له في عينيها أو قلبها حبا وتقديرا، فقد كانت المسيطرة رغم أنهم يسمونها بالأنثى الكاملة، ولكنه لا يراها كذلك، الأمر الذي لا يطيقه، بابه المفتوح حتى بعد استقلاله في بيت يضمه وشهناز ويسمى عشا للزوجية الذي يفترض أن يحتضن زوجين مغردين لم يكن سوى غشا للدبابير. المرأة التي كان يهواها لم تكن يوما شهناز، ما تحمله له من احتقار لا تتعمد إخفاءه بل تظهره في كل أمرها وأمام المحيطين به، عشه الصغير فخ من نيران وقع بداخله، دون أن يفكر فيه مطلقا، أمام هوانه عليه أن يقف على حقيقته.

- من هذا الرجل الذي بداخله؟.

هذا الرجل البائس بين جنباته في هيكله المهلهل لم يستطع أن يقرر، هل يكون زوجا طائعا لأولي الأمر؟، أم أن يخترق المألوف ويعلنها ثورة على تلك القيود وعلى سجانيه وينطلق إلى أرض أو سماء تؤويه وحده دون غيره؟.. قراره كان هزيلا خاليا من الحسم، خوفه من الدهر المحيط به، من لجته العمياء تلاطم به الخوف، من تلك السمكة الراقصة خارج السرب حيث الصخور والوعثاء، سينهي كل فصول حياته بكل بساطة، بجرة قلم يكسر حروفه من بدايتها إلى نهايتها، سيتجرع حبوبا منشطة لأعصابه، لعدم مبالاته، لشجاعته التي سيحط بها على شطآن لم يقربها من قبل، ولم يقلب صفحاتها الزرقاء.

نعم، فاضل جبران قد طوى أوراقه الخمسة بمفارقة كل عيوبه، ليرسم عيوبا أخرى لكن بوشم هذه المرة لا يزول، و لا يقهر، سيخلع كل شيء خلعا لا رجعة فيه.

الدقائق الخمس

بودي لو أنا ما التقينا في ذلك البهو الذي تنيره فراشات من نور، وما أنجبنا حزنا عميقا يوجع فينا حتى العظام، كلما توكأ كل منا إلى حيث تميل ناصيته.. وبودي لو أني لم أستيقظ من عالمي المجنون إلى عالمك المليء بالرزانة بعيدا عن التعقيد، الذي يذوب في تفاصيلنا المتشابهة التي لا يمكن لأحد أن يعرفها لأنها خاصتنا دون غيرنا، ويستطيع الواحد منا لمسها كما فعلت يا صديقي المارق على أوراقي الهزيلة..

لم تكن لتثير فضولي قبل الدقائق الخمس، قبل أن تولد تلك اللحظات التي لم توقع حربا للنظرات ولم تسقط في رحاها الكلمات، ذلك المخاض لأسميه يا عزيزي مخاض الخمس ربما.

لا أدري ما الذي جعلني أهفو ونفسي فيه إليك؟،! رغم أني لم أر لون عينيك، وأنا التي بالكاد تنظر لوجوه الجالسين بقربها على طاولة واحدة، ولا تعنيني تلك الوجوه الشمعية أمامي.

-يا أيها المار على حروفي المبعثرة تذيبها بملعقة أمامك كما تذيب تلك المربعات البيضاء، فتثير شهوتك بحلاوة تعينك على نحت طريقك وتعينني على نثر أفكاري ذات الخاصية الهلامية، كنت مثلي تماما تحتسي فنجانا من القهوة، أذوب فيها والورود أمامك كتمثال من جبس لم تثر فيك ذلك الحس بالجمال، الذي يسقط صريعا من في حضرته إلا أنت.

أوراقك تعج بالسطور وقلمك الأحمر الجاف متوكئ على إحساس عميق بانهزامية الزمان والمكان، ليتني مثلك أبحر بقارب شراعي بلا مجاديف، بلا

دفة، ولا حتى مرساة، أريد أن أهيم على وجهي في أرض بلا حدود، بلا أجرام سماوية ولا شهب، تنير سمائها ليل نهار مشاعل القلوب الصادقة.

الأوراق التي تعدها أمامك كصحف مقدسة أثارتني، أيعقل أن أغار من حبر على ورق؟!، نعم، أعترف أني قبل الدقائق الخمس لم أكن أدرك أن للورقة شهوة ونكهة ورائحة أشد من التبغ وأقوى من الكحول، رغم أني لا ألقي بسجائري في المنفضة بل أرقبها وهي تحترق في أفواه الغرباء، وما احتسيت الخمر يوما فما أريد التشويه لفكري الغض الحر، وما بحثي إلا عن صيغ الجمال.

لبريق العينين لغته، وللروح لغة، ولكل منا لغة ينطق بها يتعايش فيها مع من حوله بمنطق وبغير منطق، واخترتها لنفسي ضدا : أن يكون العنف ناقوسي منددة بقاتل النساء وأعماله الإجرامية الشاذة، أرأيت نحن نقاتل بنفس اللغة التي يواجهنا فيها الخصم؟، لم نملك بعد فن المنطق والحوار الذي يجعلنا نتفوق على خصمنا بغير لغته، بغير لغة الجسد والقذف.

لم نتعلم بعد أننا نستطيع الانتصار في معاركنا وأن نحسمها لصالحنا بغير منطق الهجوم، وهذا ما يجعل خصمنا يظن أنه انتصر، نشوته للانتصار تثير فزعنا فيكون هرمنا وتكون الشحناء والبغضاء.

هذا منطق العجز فينا الذي لم نتعلم بعد كيفية الخلاص منه، نستطيع أن نكون أقوياء دون أن نصل لمستوى الضحية، الضحية التي لم تكن الأقدار لتضعفها لولا أنها تخلت عن منطق القوة قوة الحوار والعدل والمواجهة.

نحن يا صديقي صاحب الأوراق نقلب حياتنا كتلك التي بين يديك، الأوراق الأقل أهمية هي من تلقى أولا في سلة المهملات، لتبقى الورقة الأقوى التي تتمتع صفحتها برونق ما وأسطرها بتهذيب ما، ولكنها هي الأخرى لن تكون لها الحظوة في النهاية، لن تبقى الفضلى في زمن اعتبرت الدناءة فيه من أهم المعايير، فالقواميس وأيدلوجيا وفن التفكير والسلوك على حد سواء له حسابات أخرى.

المرأة فينا اتخذت لنفسها بيتا هو أوهن من بيت العنكبوت، أن تعرض كل ما لديها في الساحات العامة وفي سوق النخاسة وأن تباع وتشرى حسب الطلب، حسب جمال الجسد والوجه. ذلك الفخ الذي دفعنا لكي نصل إليه الكثير من منطقي المساواة و العدالة.

شعاراتنا واهنة ساذجة: لا نريد أن نكون إماء فأصبحنا السيدات الإماء. بصورة سيدات امتهن العري والغنج والدلال، ومن لم يستطع منهن اتخذ الضعف والذل مهنة تؤجر عليها من حسابات سفلة.

ماذا لو أنّا غيرنا المعادلة واقتفينا علم الفهارس، وأعدنا تعلم الأحرف الهجائية من جديد ونبشنا الكتب وعوالمها، واستبقنا عصور النهضة بقليل؟.

ماذا لو صنعنا قوارب من خشب وطليناها بالقار، وأحكمنا بناءها ولو بعد جهد بدلا من قوارب الورق؟.

ماذا لو صنعنا لفائف من حلاوة العلم والنور بدلا من لفائف التبغ، واحتسينا لغة الحوار والتصالح مع الذات؟.

ماذا لو أوقفنا العقارب قليلا لنعيد البرمجة الخطية وأجرينا استئصالا للجين المشوه، وعدلنا في حمض (DNA)؟.

ماذا لو فعلنا كل هذا وحسب دون أجندة؟.

لن يسبقنا أحد إلى جهلنا بل ربما نستطيع أن نغير حاضرنا البائس.

أعترف أني أسهبت في الكلام معك، وأنت على بعد طاولة مني، أمامي مباشرة تحيط بك هالة من نور وسكينة، وضجيج الهدوء ما جعلك تزيح عينيك عن تلك الأوراق، ليتني أفعل مثلك وأطيل النظر في عالمي المجنون وقضايا المرأة، لأسقط سهوا بين أوراقك لو كلمة تائهة، لو سطرا ما، أو رقما لصفحة ما تعيد تلوينها كما تريد.

أرأيت أن المرأة منا عندما تحب تكون قديسة، لا تستطيع الصلاة إلا في محراب يجمعها مع من تحب، وأن تغتسل بروحه فقط وأن تذوب وإياه حالمين بقصور من أحلام وسقيا الياسمين وسماء متدلية منها القناديل؟!.

كم أنت قريب من غير أن ننطق ولو كلمة، من غير أن ترسل نظرك لمن يجلس في محيطك الواسع، لقد كنت أكبر من حجم أحلامي، أكبر بكثير بأكثر مما أشتهي أوراقك التي تمضي فيها بعيدا بلا اكتراث، التزامك وتقديرك لما بين يديك، الوفاء والعمل الصادق منك، الهدوء والرزانة والقليل من الضوضاء، بيتا دافئا تكتفي فيه بعدتك من أوراق وقلم أحمر جاف وفنجانا للقهوة، لم تتعب تفكيرك في لونه أو نقشه، في زوجة هادئة تربي لك صغارك وتحفظك في غيبتك.

ما أجمل تلك الحياة الهادئة التي تجعلني أحلم بامتلاكها.

لكنك يا صديق الدقائق تهرب منا على عجل، كما أنت تسقطني سهوا دون اكتراث وتلملم أوراقك، وكأنك تخشى اكتمال الزمن وتخشى الدقائق الخمس.

تطل أوراقك النقدية على عجل كما لو أنك حسبت حسابها، فلم تتعب نفسك في بعثرة الوقت وفي استعراض المحافظ الجلدية وطرازها، وكم النقود في داخلها وغيرها من أمور بلهاء، ثم خرجت حاملا معك كل ما تحتاجه، وتركت الفنجان المرسومة على جانبيه صورة فتاة بائسة في العشرين من عمرها، تحمل هموم الكثيرات، وتبحث عن حل، حل لها فقط.

أتقدر ما أعانيه من أنانية؟، أريد أن أنجو من الطوفان معك، وأكون أول من تختار في سفينتك هربا من طوفان الهزائم والانكسارات.

آه لو أني قرص من تلك الأقراص البيضاء التي أذبتها في فنجانك، لكنت شعرت بحلاوة تناديك!.

آه لو أني كنت ذلك القلم ذي الحبر الجاف، لشعرت بي وأنا أنساب بين أصابعك!.

لم أدر يوما يا صديقي الهارب من أمامي بعد الدقائق الخمس أني التقيتك يوما، ربما يوقظني صوت من هنا أو هناك ليذكرني في الحقيقة أننا كنا يوما معا.

مفترق من الطرق بيننا يا صديقي مليء بحطام السفن الهاربة.

أراء النقاد

القاص العراقي فلاح العيساوي

اطلعت على قصص القاصة الأردنية الأستاذة رولا حسينات، فوجدت أن قصصها تمتاز بأشياء كثيرة منها، سلاسة التعبير والتركيبات اللغوية التي يفضلها أغلبية القراء، وتنوع الأحداث التي تزيد من تنوع المشاهد الدرامية التي تشد المتلقي لإتمام عملية القراءة، على الرغم من طول القصة القصيرة عند الأستاذة رولا... ومن الجدير بالذكر أن قصص رولا متنوعة من حيث الثيمات رغم غلبة الواقعية التي تعالج الكثير من المشاكل والحلول الاجتماعية بطريقة الأديب المصلح، والقصة تبقى عبرة لكل الأجيال القادمة. وقد لاحظت من خلال قصصها التي يصل عدد كلمات بعضها إلى أكثر من ألف كلمة، وجود نفس روائي عندها وعن نفسي لا أشك في قدرتها على إنتاج رواية في قادم الأيام وربما تكون فعلا كتبت رواية وقد تطالعنا بها بعد حين... كل تمنياتي للزميلة المبدعة القاصة رولا حسينات بالتوفيق والمزيد من الإبداع والتألق.

ادخلوها آمنين: قصة تتشابك مع الواقع بذكاء شديد؛ استطاعت كاتبتها أن تطرح رؤيتها في قضية الإرهاب على نحو درامي بحرفية و اقتدار... أبدعت في الوصف و التعبير؛ فأحالت النص القصصي إلى مشاهد تنبض بالحياة، وهو ما يؤهل هذا العمل الأدبي الراقي و الهادف للإنتاج التلفزيوني كأحد وسائل القوة الناعمة في مكافحة الإرهاب.

***

الكاتبة الكويتية شمسة العنزي

السقوط إلى أعلى... رؤيتي المختصرة في هذه القصة:

قصة امتزج فيها الوضوح بالإلغاز، و الواقعية بالرمزية على نحو تلخصه العبارة التي أوردتها الكاتبة في متن وصف حالة البطل: "أصبحت حياته

طيفا ثملا يروح ويجيء بين صفو الكلمات وسوء الممارسات" تلك الازدواجية التي أضفت حالة من الغموض على نهايتها، بطريقة سرد تفتح شهية القارئ للتأويل، وصولا لما أرادته الكاتبة من معنى، أو حتى تجاوز ذلك إلى دلالات إضافية.

***

د.ثروت عكاشة السنوسي

رولا حسينات كاتبة أردنية متميزة في الكتابات السردية - رواية. . قصة. . قصة قصيرة جدا - حيث طابعها الخاص في الصياغة الفنية الجيدة مع الحفاظ على الهوية العربية في الصياغة اللغوية التي تميزت فيها بحسن التوظيف في إطار الفكرة والموضوع معا مما يعطيها تفردا بين الكاتبات في مختلف بقاع الوطن العربي. . متمنيا لها مزيدا من التقدم والرقي...

السيرة

الاسم: رولا عبد الرؤوف حسينات

تاريخ الميلاد: 27-9-1976

الجنسية : أردنية

التحصيل العلمي: بكالوريوس إدارة أعمال

جامعة اليرموك- التقدير جيد جدا

البريد الإلكتروني:rulahessinat@gmail.com

العنوان: المملكة الأردنية الهاشمية

الجوائز:

مسابقة القصة الومضة العالمية للعام الأول مجموعة قصصية قصيرة جدا (عبرة)2014تأهلت للمرحلة الأولى فازت بجائزة التميز

مسابقة شعراء من أجل التغير مسابقة القصة للتغير المناخي في اللغة الانجليزية..2014-2015 وقد رشحت للنشر.

قصة بعنوان (المهاجر) لمسابقة مدونة صبري رضوان وقد فازت بالمركز الأول المستوى الأول وتم توزيع الجوائز في قصر ثقافة الفيوم يوم 6/ 2014/2

مسابقة التكية 2015 مجموعة قصص قصيرة جدا رشحت للتصفية النهائية

مسابقة زحمة كتاب الدولية بمجموعة قصصية للأطفال2015-2016 فزت بالمركز الرابع في أدب الطفل

مسابقة الأورومتوسطية للنساء فقط قصة ذكريات صامتة2014..رُدت بالبريد الأردني فقدمتها لموقع زحمة كتب فنالت المركز الأول في القصة القصيرة

مسابقة باكثير للقصة القصيرة 2015 وقد فازت قصة مدينة الأشباه بالمركز الرابع.

عضوة في تجمع ناشرون تجمع أدبي عربي..وقد فزت بلقب فارسة الموقع

وفزت مسابقة أوتار في الإلقاء دون مؤثرات صوتية2015

مسابقة دار حفد لأفضل مقال عربي 2015..المركز الثالث

فزت بمسابقات دار حفد للنشر الالكتروني في مجالي القصة القصيرة جدا والشعر الفصيح2015 والمقالة العربية-04-18

مسابقة ألف قصة وصحوة للكتاب العرب قصة قصيرة نشرت باللغات الانجليزية والعربية والاسبانية Arabian stories2015

جائزة البتانة للقصة القصيرة رشحت قصتي منعرجات النسيان من المجلس الأعلى للثقافة المصري2016

فزت بجائزة النشر مع مركز إنسان 2015golden pen بالمركز الثاني

مسابقة حروف منثورة بمقال الرأي وقصة قصيرة 2015-12-10 وقد فزت بالمقال على مستوى الوطن العربي..

مسابقة واحة الأدب برعاية رابطة الأدباء الكويتيين...المركز الثالث في القصة القصيرة على مستوى الوطن العربي دورة يونيو 2016 وقد نشرت في مجلة البيان الكويتية.

مسابقة زحمة كتاب للقصة القصيرة 2016

مسابقة جولدن بن 2016 المركز الثاني

جائزة جريدة صدى مصر الإخبارية في مسابقتها الأدبية في المقال 2016 ونلت المركز الثالث.

جائزة أفضل نقد أدبي لرواية في قلبي أنثى عبرية 2016

المركز الثالث في دورة فؤاد نصر الدين للقصة القصيرة مركز لوتس للدراسات 2016

فائزة في مسابقة صالون نجيب الثقافي في القصة القصيرة المنفردة لما فوق 30 سنة

مقالة كتاب أوصلنا إلى قطاف مثمرة..في نقد كتاب الارتقاء في معاني القرآن الكريم للكاتب السوري عبد الباقي يوسف..مجلة حوار أربيل كردستان...2014-2015 وقد اختير للنشر بملف يحمل اسم الكتاب في مطلع يناير وقد نشر على جريدة العراق تايمز وعلى مجلة الغرباء الالكترونية

لقاء صحفي مع جريدة الوطن الجزائرية تم نشره بوكالة أخبار المرأة أدباء الشام..مجلة الفكر وغيرها

حاصلة على شهادة فخرية من متحف الكلمة كسفيرة للكلمة.

الكتب والمقالات المنشورة الالكترونية

لدي كتابين قد نشرتهما دار حفد نشرا إلكترونيا الأول بعنوان مسألة وقت والأخر مقدم للأطفال بعنوان الرغيف الأسمر يتضمن قصص بالعربية والانجليزية.2015

مجموعة قصصية بعنوان قارورة الزمن دار حروف منثورة للنشر الالكتروني 2015

مجموعة قصصية على سرير الحياة يسقط الموت لدار حروف منثورة للنشر الالكتروني 2016

رواية قصيرة منشورة بعنوان الدفين نشرا الكترونيا لدار حفد وهي رواية للأطفال 2105

قراءات نقدية بلمسة سياسية ..دار حروف منثورة للنشر الالكتروني2016.

قصص في مجلة زيزفون الالكترونية

مدونة طوسون

مدونة صبري رضوان

مدونة حي بن يقظان للأطفال

كتاب بلا أقنعة

بالعربي..

كاتبة في الحوار المتمدن

كاتبة في مدونة الجزيرة

وكالة المرأة العربية

عضوة في زحمة كتاب ورشة أدبية...

شبكة المدونون العرب

دار حروف منثورة للنشر الالكتروني

دار حفد للنشر الالكتروني

دار زحمة كتاب للنشر الورقي

تجمع ناشرون وBlogg

فريق ماذا تقرأ هذه الأيام

مجموعة عرار الشاعرات العربيات..

عضوة في ديوان العرب...

عضوة في الاتحاد العالمي للمبدعين والشعراء العرب القاهرة.

الفهرس

النّقش على الحجر "تقديم أيمن العتوم"	5
ادخلوها آمنين	9
السقوط إلى أعلى	23
رقصة قبل الوداع	33
عاشق الحجر	45
ما قبل النهاية...	53
الرقدة الأخيرة	63
المرجان	75
ربما يوما ما..	83
صاحبة الجلالة	89
فوضى الحواس	97
يا مفارقي	105
الحبر القرمزي	111

الفكر الآخر	131
جاردينيا	139
شتيات المصاطب	149
فقراء ولكن...	155
منعرجات النسيان	161
الرهينة 21	167
الحقيقة الصامتة	175
المرجانة الملعونة	183
الأوركيد	189
اللعبة الأسهل	205
الخلع الأبدي	215
الدقائق الخمس	221
أراءالنقاد	229
السيرة	231